أنشودة البطل

تأليف
بهى الدين محمود عوض

القاهرة
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م



إهـــــداء

الى أبطال ٦ أكتوبر الذين عزفوا
لأمتنا انشودة الأمل



(١)

وقف وليد ببزته العسكرية في فناء الدار يحتسى كوبا من الشاى ويرنو الى ديك مكتنز اللحم ذهبى اللون ينفض جناحيه الجميلين في تيه وكبرياء ومن حوله أسراب من الدجاج أخـذت تقرقر وتدس مناقيرها في وعاء مملوء بالقمح وبينما وليد مستغرق في تأملاته شعر بيد رقيقة تربت على كتفه فتهلل وجهـه بشرا عندما رأى وداد بجانبه ترتدى فستانا وردى اللون وتنسدل عليه من نحرها المرمرى عقد ناصع البياض ، جذبها وليد من يدها الى داخل الدار وشعر برعشة جامحة تسرى في أعطافه ٠

نظرت اليه في تدله وقالت في رقة :

ـ هكذا ترحل عنا يا وليد ٠

رفع وليد رأسه الى وجهها وتأمل شعرها المنسدل على نهديها البلورين ثم دنا منها ووضع يده في يدها ثم قال :

ـ تم استدعاء كل من في الأجازات ٠

ـ الحرب اذن محتملة ٠

ـ مؤكدة ٠

اربدت قسمات وجهها وقالت بصوت متهدج :

ـ هذا يعنى انك ستغيب عنا طويلا ٠

ارتسمت على وجهه ابتسامة خافتة وقال :

– قد يكون هذا آخر لقاء بيننا .

انتفضت وداد من مكانها مذعورة ولمع فى عينيها بريق حاد وقالت وهى مرتعشة الشفتين :

– صه .. لا تقل هذا يا وليد .

سكت وليد برهة وقال بصوت حاسم النبرات .

– لن يحمى مصر سوى أبنائها .

أسبلت وداد جفنيها وأطبقت شفتيها ثم ملأت العبرات عينيها ولاذت بالصمت . أضاف وليد قائلا :

– أعلم أن بكاءك ليس شحا فى حب مصر . ولكنك تبكين حرقة الرحيل – حملقت وداد بعينيها المستعبرتين الى قامته الفارعة ومنكبيه العريضين ووجهه الذى ينسم بالرجولة ثم قالت بصوت هامس :

– خصالك وسجاياك يا وليد كامنة فى نفسى وأشعر فى غيبتك بافتقاد قلبى .

قال وليد متأثرا :

– لا تسرفى فى المشاعر يا وداد واختارى منها ماهو مشرقا للقلب .

أقبلت عليهما أم وليد وهى ترتدى ملابس بيضاء وبوجه يزهو بنور غريب ثم قالت وقلب الأمومة يفيض على وجنتيها :

– دعوت لك فى صلاتى يا وليد .

وانهمرت الدموع من مقلتيها حتى اخضل وجهها وأخذت

تتلمس شعره ووجهه وملابسه ، فانحنى وليد اليها وأمسك يدها وأخذ يقبلها فى حرارة ثم قال بصوت مرتعش :

ـ ادعى لى دائما يا أماه ٠

ثم استدار وليد برأسه ناحية وداد وتعلقت عيناه بعينيها وقال ودفء الحب يملأ شغاف قلبه ٠

ـ اذكرينى دائما بخير يا وداد ٠

ثم ودعها وليد وانصرف يخطو بخطوات وئيدة على طول طريق اصطفت على جانبيه أشجار التوت والعبل وامتد عليه جدول صغير ازدهرت على شاطئيه اعشاب برية يانعة الخضرة ٠

كانت القرية تغزل أفراحها ، فلاحوها يعزقون بفئوسهم الأرض السمراء وبناتها فى عرس الربيع يصدحون بالغناء وأهازيج الطيور على الأغصان المتهدلة تنشد للطبيعة أسرارها ٠

وقف وليد على محطة الأتوبيس وأخذ يرهف السمع الى قمارى يهدل بصوت رخيم فوق دغل عتيق فأيقظ فى وجدانه ذكريات بواكير الطفولة يوم أن ترملت أمه بعد موت أبيه ثم جهادها وصبرها ومجالدتها للمصاعب بقلب لا تلين عزيمته وكيف انبرى لها ذئاب البشر بأرواحهم الشريرة وكيف كانت تصدهم فى منعة وقوة ٠ وظل الحال هكذا ردحا من الزمان الى أن انجابت الظلمة وانبثق الفجر فى صدرها بعد صبر طويل ٠ وارتقى أبناؤها مناصب طيبة ٠ وقف وليد أمام هذه المشاعر يجاهد عواطفه الى أن تدافعت الى أذنيه طقطقة عجلات الأتوبيس وهى تنهب الطريق الترابى ٠ فنهض اليها مسرعا واستقلها وجلس بجوار شباكها يتنسم هواءا ربيعيا نديا ٠

وكان المسافرون يشرقون ويغربون فى أحاديثهم والكل يتحدث عن الحرب واحتمالاتها ومصر ومدى استعدادها ٠

وانبرى ريفى رث الثياب ضخم الجثة مبروز الشاربين الى شاب يتحذلق فى أحاديثه وقال له بصوت أجش :

مصر أم الدنيا قواتنا ستحتل تل أبيب فى ٢٤ ساعة ٠

قطب شيخ معمم حاجبيه وقال غاضبا :

ـ قل باذن الله يا رجل ٠

وعلى امتداد الطريق الترابى كان الأطفال يلعبون ويغنون بأهازيج وطنية بوجوه معفرة وبملابس مرتقة والفلاحون على شواطىء الترع يحتسون أكواب الشاى فى نهم ويستمعون بفرح الى نشرات الأخبار من المذياع ٠

★★★

وصل وليد الى المدينة وجلس الى المقهى منشرح الفؤاد مثلج الصدر وطلب كوبا من الشاى فتقدم اليه صبى بجلباب فضفاض وابتسم له ابتسامة عريضة وقدم له كوب الشاى وقال فى أدب جم :

ـ نقدم رؤوسنا لكم يا أبطال مصر ٠

ابتسم له وليد ابتسامة عريضة ٠ وجلس يحتسى الشاى ولفت نظره حديث يصدر من مجموعة تجلس فى قلب المقهى ٠

قال رجل والحماس يتألق فى عينيه :

ـ قوتنا لا تقهر ، جيشنا قادر على ازالة اسرائيل ٠

رد عليه شاب متجهم الوجه :

ـ اسرائيل تساندها الولايات المتحدة ٠

قطب الرجل حاجبيه ومط عنقه وقال غاضبا :

ـ سنحارب اسرائيل ومن يساندها ؟

انتفض رجل ضخم الجسم من مقعده وقال والشرر يتطاير من عينيه :

ـ أمسك عن الكلام يا رجل ، أحاديثك دائما مثبطة للهمم·
رشقه الشاب بنظرة نارية وقال محتدا :

ـ أنت رجل تعوزك المناقشة ·

ضرب الرجل الضخم المنضدة بقبضة يده فتطايرت أكواب الشاى وسقطت مهشمة على الأرض وقال بصوت لاهث متقطع :

ـ أنا وطنى ··· أنا ابن مصر ·

دار هرج ومرج فى القهوة وتناثرت الكراسى والأكواب فى الفضـــاء فاندفع نحوهم وليد وأشاح بيــديه القويتين الكراسى المرفوعة وقال :

ـ ليس بهذا الأمر تناقش الموضــوعات ، الكل فينا يحب مصر ولكن تختلف بيننا السبل فى حبها ، فارتفع صــوت حاد النبرات قائلا :

ـ أنت لا تعرف هذا الشاب يا دفعه اننا نرتاب فى أمره ·

ونهض من بين الحاضرين شاب حاسر كمى قميصه وقال وهو يتفجر بالغضب :

ـ أمثال هؤلاء ، يستحقون القتل ·

صرخ الشاب أمام كل هذا الهجوم وصاح فيهم قائلا :

ـ كل ما تقولوه محض افتراء ·

فض وليد المتشاجرين ثم برح المقهى الى الشارع واستقل متن سيارة عسكرية تقل عددا من العسكريين متجهين الى وحداتهم وكانت حركة المرور قد خصصت لقوات الجيش التى أخذت تعبر الشوارع فى طوابير طويلة . وكانت المدافع والدبابات المحمولة فوق جراراتها تلهب مشاعر الجماهير .

تألق وجه وليد بالفرحة وانتشى قلبه بالسرور وهو جالس فوق السيارة بين رفاقه الجنود يترقب ما حوله فى حماس جارف. ثم شقت السيارة عباب الطريق الصحراوى الى أن دبر النهار وأفل الغروب وهبت نسمات المسـاء الربيعية تعبق بأريج طيب فأخـذ وليد ينفث خيوط الدخان الأبيض من سيجارته ويحملق الى بقع ضوئية خافتة تنتشر فى أصقاع الصحراء المترامية .

(٢)

بسط وليـــد راحتيــه وأجال بصره الى طوابير الدبابات والمدرعات والسيارات الواقفة أمام وحـدة الشرطة العسكرية ثم تقدم الى السيارة جندى رشيق القامة وأخذ يفحص تصريح المرور وبعد أن أتم اجراءاته انطلقت السيارة نحو وحدته وكانت الدجنة مترامية وأمواج البحر تسبح فى ليل طويل وتراءت له الوحدة عن قرب تضجع برفق على الشاطىء ، احتـواه فكر أخضر وهو يرى ظلال المدافع المرابضة على الشاطىء ٠

ووقفت السيارة فتدافع منها الجنود الى الوحدة وانطلق وليد نحـو خيمته وكان رفاقه يغطون فى النـوم فخلع ملابسه فى حذر وألقى بنفسه على فراشـه وهو فى سعادة غامرة تمتم صــوت هامس :

ـ من بالخيمة ٠٠٠ ؟

ـ أنا وليد ٠

فنهض حسين من فراشه وألقى بغطائه الخشن ثم قال :

ـ حمد الله على السلامة يا وليد ، أجازة طيبة ٠

ـ يا ليتنى بقيت هنا معكم ٠

استدار حسين برأسه نحوه وقال مندهشا :

ـ لقد حظيت بلقاء أسرتك ٠

تقلص وجه وليد بالألم وقال :

ـ أحزنني فراق أمي ٠

ـ لقد رأيتها واطمأنت نفسك عليها ويكفيك ذلك ٠

انتفض فهمي من فراشه مقطبا حاجبيه وقال في غضب :

ـ أتيت لتزعجنا يا وليد ؟

ـ معذرة يا فهمي٠ ٠

تناهى الضيق بحسين وقال محتدا :

ـ ليس هذا وقت النوم يا فهمي ، كل شخص منا يعيش لحظات عمره ٠ فنهض فهمي قائما وقال بعصبية :

ـ تعلمني كيف يكون الحديث ٠

ـ أنا دائما أعيب فيك تصرفاتك ٠

تقدم فهمي نحوه وقال وفي عينيه شر مستطير :

ـ أنت جاهل لا تعرف شيئا من أمور الدنيا ٠

استيقظ زهانه من نومه وقال :

ـ ماذا حدث يا رفاق ٠٠٠٠ ؟

تقدم وليد نحو فهمي وربت على كتفه واتجه الى حسين وهمس في أذنه يرجوه الصمت والهدوء ٠

ضربت نوبة قيام فاستيقظ الجنود بوجوه تفيض نشاطا وحيوية واتخذت كل جماعة مواقعها لنظافة المعسكر وبعد أن أتموا عملهم اتجهوا بنشاط وخفة الى طابور الصباح ٠

تصدر صفوف الجنود قائد الوحدة بقامته المديدة وبوجهه

النحاسي وأخـــذ يلقى بتعليماته وبتوجيهاته الى ضباط وجنـــود الوحدة وبعد أن أنهى القائد حديثه تقدم الرقيب فرحات بخطوات وئيدة وأدى التحية العسكرية بيد قوية كالفولاذ وأخذ يقرأ الأوامر والتعليمات على الجنود وبعد ذلك حيا الجنود العلم وهتفوا لمصر بملء أفواههم · ثم انصرف الجنود الى مواقعهم ·

★★★

انفرد وليد بنفسه على شاطىء البحر يحملق فى قمم العراك الموجى ويرهف السمع الى الطبيعـة وهي ترتل نشيدها الكونى الرائع ، وانطفأت من قلبه كل ظلال الألوان الشـاحبة واخضرت الصور أمام عينيه وهو يرى الصحراء مكللة بالمدرعات والدبابات والمدافع الشامخة ومن حولها جماعات الجنود بوجوههم النحاسيه وبخوذاتهم الحديدية اللامعة تحت وهج الشمس عاد وليد الى وحدته وهـو منتعش الفؤاد واستقبله الرقيب فرحات وفى عينيه بريق لامع وقال فرحا :

ـ اتخـذت مصر قرارها الحاسم وطلبت من الأمم المتحـدة سحب البوليس الدولى · قال وليد مندهشا :

ـ متى سمعت ذلك ··· ؟

ـ الآن فى نشرة الأخبار ·

ـ الحرب اذن على الأبواب ·

قال الرقيب فرحات وهو منتفخ الأوداج :

ـ سنحتل تل أبيب قريبا ·· ان شاء الله ·

وأشار بإصبعه ناحيـة مدافع الســواحل الرابضـــة على الشاطىء وقال والفرحة تملأ شغاف قلبه :

– سندمر بمدافعنا تلك أسطول العدو اذا سولت له نفسه القدوم الى شواطئنا • فرمقه وليد بنظرة اعجاب وقال :

– الكل يعرف مدى أريحتك فى القتال •

ارتسمت على وجنتى الرقيب فرحات ابتسامة متألقة ثم لوح بقبضة يده فى الفضاء قائلا :

– انى أنتظر ملاقاة العدو بفارغ الصبر •

وانصرف يدق الأرض بأقدامه الحديدية وعاد وليد الى خيمته فرأى حسين يتراشق مع فهمى فى حديث ساخن •

قال حسين فى ضيق وضجر :

– أنت مثل سيىء لنا •

بلع فهمى رضابه بصعوبة واحمرت عيناه غضبا وقال :

– أحاديثك كلها وقحة مثلك تماما •

شعر حسين بقشعريرة حادة تنتاب كل سرائره فقال وهو يكظم غيظه :

– تجاهلك وتجاهل كل أحاديثك فضيلة •

تدخل وليد متسائلا :

– ماذا حدث ؟

أجاب حسين منفعلا :

– انه يشك فى كل الأشـياء من حـوله ويعتبر انسحاب البوليس الدولى مصيبة كبرى لنا •

رشق وليـــد فهمي بنظـرات نارية وقال وصـــدره متأجج بالغضب :

ـ لا تعود لمثل هذه المهاترات مرة ثانية يا فهمي ٠

فاكفهر وجه فهمي بانفعالات حادة وقال وهو متجهم الوجه :

ـ أي مهاترات تعنى ٠٠٠ ؟

ـ انك تعرف ما أعنيه ٠

ـ أنت تجهل الأشياء تماما مثل حسين ٠

قال وليد وغصص الألم فى حلقه ٠

ـ كل ما تقوله خطأ لانك للأسف تأخـذ الأمور من أقبح الصور ٠ دس فهمي يده فى جيب سترته وأخرج منها سيجارة وأشعلها بيد مرتعشة وأخذ ينفث دخانها بعصبية ثم يتفرس وجه وليد وقال والشرر يتطاير من عينيه :

ـ أنك تدعى لنفسك الحكمة فى القول والتبصر فى الأمور والأستاذية فى الوطنية . وتنمق كلماتك وتنتقى عباراتك ولكن مع كل ذلك تبتعد عن الحقيقة وعن واقعها المر ٠

فاقترب منه وليد بقامته الشامخة وقال بصوت حاســـم النبرات :

ـ انى أترفق معك دائما فى الحديث لعلك تثوب الى رشدك ولكنك تلفظ دائمـــا بفحش الكلام وتضلل النـــاس بأحاديثك وتثبط فيهم الهمم ونتيجة للظروف الحاسمة التى نعيشها رأيت أن أبلغ القائد بكل ما تقوله اذا تكرر منك مثل هذا الأسلوب مـرة

ثانية فى مناقشة الجنود هنا فى وحدة على أهبة الاستعداد للرحيل الى المعركة فعلت وجه فهمى صفرة شاحبة وظهرت فى عينيه أمارات الريبة والقلق ولاذ بالصمت . وجلس الثلاثة فى الخيمة لا يند عنهم صوت ولم يقطع هذا السكون الذى ران على الجميع الا صوت زهانه وهو يدلف الى الخيمة مهرولا ويدعو وليد لمقابلة قائد الوحدة .. فانطلق وليد مسرعا الى الخارج وهو يفكر فيما تبطنه هذه المقابلة .

(٣)

دخل وليد حجرة القائد وأدى له التحية العسكرية فردها اليه ثم أمره بالجلوس ، وكان القائد جالسا الى مكتبه يفض بعض أوراقه الرسمية وقد جركمي قميصه وتكورت فيهما عضلات ساعديه القويين ، وكانت الحجرة بسيطة متواضعة تنم عن ذوق جميل فقد زينت جدرانها بآيات قرآنية كريمة وبأقوال مأثورة لكبار القادة العسكريين هذا بالاضافة الى لوحات فنية لكبار الفنانين وبعد أن فرغ القائد من أعماله المكتبية رفع رأسه الى وليد وقال وعيناه تلمعان ببريق حاد ٠

ـ انت تعلم ياوليد خطورة الحرب النفسية وأثرها على الجنود ولهذا يجب ترشيدهم بطبيعة العدو وبخصائصه وكذلك توضيح الموقف العام بكل ظروفه واحتمالاته المتوقعة ٠

وسكت برهة وأضاف قائلا ٠

ـ وقد اخترتك لهذه المهمة نتيجة لتخصصك ولحسن سلوكك العسكرى فأجاب وليد والفرحة تطل من عينيه :

ـ أنا على أتم استعداد يا افندم ٠

وانصرف وليد وبسطة السرور تعلو وجنتيه وكان يعجبه فى قائده خصاله وحسن سجاياه وشدة ضبطه وربطه وارادته الحديديه التى لا تلين وقد أدرك كل ذلك أثناء المناورات التى كانت تقوم بها

الوحدة وكان يتوسم فيه أيضا مشاعره الانسانية تجاه الجنود فقد كان يواسيهم فى أحزانهم كما كان يشاركهم فى أفراحهم ـ أنس وليد لكل هذه السيمات التى يتحلى بها قائده فدلف خيمته مسرورا جزلا ولكنه رأى حزنا صادقا قابعا فى ركن من أركان الخيمة فقد وجد حسين منكسا رأسه الى الأرض وغائبا بعينه فى شرود عميق فهزه من رأسه وقال ٠

ـ فيما تفكر يا حسين ٠ ؟

رفع حسين رأسه وقال فى أسى :

ـ عاودتنى أحزانى يا وليد فلم أستطع مطاردتها ٠

ـ انك تضن على دائما بالحديث عن شئونك ٠ قل بالله عليك ما يؤرق حياتك ٠ ؟

ـ لا أحب ان أشغل الناس بأحزانى ٠

ـ الحديث عنها يخفف بلاءها ٠

ـ جرحى مازال ينزف بؤسا ٠

ورفع عينيه الى وجه وليد وقال متأثرا :

ـ سوف لا آكون مقلا بالكلام معك فلقد عرفتك عن قرب شابا مثقفا يحمل فى جوانبه قلبا عظيما ٠ ولهذا رأيت ان الوذ بقلبك وفكرك فى محنتى ٠

وأضاف وغصص الألم فى حلقه ٠

ـ زاملتنى فى الدراسة الجامعية فتاة شغفت بها ثم جمع بين قلبينا أواصر حب عنيف أخذ ينمو بيننا الى ان أصبح قلبانا فى زهرة واحدة تزين كل منا بها وقد تعاهدنا على الزواج بعد

التخرج من الجامعة · ثم أتانى الشر من صديق كنت أعتز بصداقته وأخبرنى بأن فتاتى تصادق شابا ثريا فاهتزت عواطفى وانتابنى حزن أسود فأخذت أترقب الموقف · وذات مســاء رأيتها تصحب شابا فى سيارة فارعة · فتلظى قلبى بنار الغضب ، وانهيت كل ما كان بيننا ·

وزفر زفرة طويلة وقال بقلب ينزف حزنا :

ـ ثم علمت الحقيقة وما أقساها على نفسى لقد اكتشفت أن هذا الشاب ماهو الا عمها الأصغر وقد عاد من بعثة علمية فى أوربا ففرحت بالخبر وأخذت أبحث عن أخبارها لأكفر عن خطيئتى وعندما وصلت الى ما كنت انتظره وجدتها مريضة بالمستشفى وهناك رأيتها جسدا هامدا ووجها زاويا قد هده السقم وكانت تشرف على رحيل حقيقى فلازمتها ليلهـا ونهارها الى أن أسلمت الروح وذهبت مع المشيعين نواريها التراب وبقيت ذكراها للآن فى قلبى نارا لاتخمد ضرامها ثم انخرط فى بكاء طويل ·

وظل وليد طوال ذلك مشدودا الى وجه حسين ولا تطرف له عين فقد كان يعلم مدى ما يكابده حسين من حزن حقيقى فهو يرى فيه حلما ضائعا ، ومثالية تتسبح فى دنيا العدم ولما انتهى حسين من حديث عذابه دنا منه وليد وربت على كتفه وتعلقت عيناه بعينيه السابحتين فى الدموع وقال متأثرا ·

ـ لاتسرف فى أحزانك كثيرا ياحسين ، فهذه هى مشيئة الله فأومأ حسين برأسه وقال ساخرا ·

ـ لا هذا ما اقترفته من اثم ·

ـ صاحبك هو صانع هذا الاثم ·

فانتفض حسين من مكانه واقفا وقال بصوت يقطر شقاءا ·

– لاتهون الأمر على يا وليد ، قل لى أن هـذا اثمك وخطاك وهذه جريمتك ٠

– الأمر ليس بهذه الصورة مطلقا ياحسـين – رمقه حسين بنظرة خاطفة وأخذ يروح ويغدو أمام الخيمة وقد حـاق به ضيق شـديد ٠

دخل زهانه وهو يقضم بين أسنانه قطعة من اللحم ويترى نكاتا متتابعة ثم قال جزلا ٠

– سرقتها من المطبخ ٠

وأضاف مسرورا ٠

– قلبى يهفو الى السمك ٠ السمك الطازج ٠ لقد تاقت نفسى الى رحلات الصيد وأيامه السخية لقد كنت أخرج فوق زورقى مع الفجر وانساب به داخل الموج واتنسم من البحر عبيره الطيب ونرمى شبابكا فى قلب الماء فيختلف بيننا الرزق يشح البحر علينا أحيانا ويغدق بالخير فى معظم الأحيان وكنـا نفرح ونغنى ونعود لأولادنا وأكفنا مملوءة بالخير ٠

وسكت برهة وقال ضاحكا ٠

– بعد أن نحتل اسرائيل سنصيد من شواطئها فالبحر بحرنا والمياه مياهنا ٠

ثم استدار برأسه يمينه ويساره وقال هامسا ٠

– نحتلها على شرط الا يأتى معنا فهمى ٠ تكشيرة وجهه تطرد الفرحة من قلبى ٠

وأخذ يترى النكات ويضحك ويغنى بملء فمه ٠

جلس جنود الوحدة فى صفوف منتظمه مفترشين الرمال ، فى وقت أصيل تورد فيه وجه الأفق وهبت مع قدومه نسمات طرية أخذت تهز ذوائب الشجر المتناثر فى أعطاف الوحدة وأمامهم وقف وليد يلقى محاضرته ، وبعد ان فرغ من حديثه قال موجها كلامه الى الجنود ·

ـ والآن حان وقت الأسئلة ·

قال جندى فى حدة ·

ـ لقد أفضت بالحديث عن العدو وعددت مميزاته ·

ـ وقال آخر وقد استشاط وجهه بالغضب ·

ـ وتماديت فى القول عنهم ونسيت أنهم قوم جبناء يهابون القتال ثم حدثت همهمة بين الجنود وساد المكان هرج ومرج ولاحقت أذنيه أقوال جارحة تقول (انه يهرق ، شخص لايحسن القول ، أخطا من أعطاه شهادة جامعية) فصاح فيهم الرقيب فرحات قائلا بصوت حاد جهورى :

ـ التزموا الهدوء · واستمعوا لكل ما يقوله وليد ·

تعلقت عينا وليد بوجوه الجنود المحتدمة بالغضب فقال متئدا·

ـ لا يغضبنى فعلكم هذا لأنه يفصح عن قلوب متوقدة بالحماس ولكن أحب ان نضع الأمور فى مكانها الصحيح وان نسمى الأشياء بأسمائها · ونحن أقوياء وهذا حق ولكن لايمنع ان نعرف عن العدو قوته لنبطل بذلك خصائصه · نحن نملك كل امكانيات النصر كثافتنا البشرية قوة لنا ، وبلادنا العربية المترامية من حولنا تكسبنا عمقا استراتيجيا ·

وسكت برهة وتنفس نفسا طويلا وتفرس فى وجوه الجنود ثم قال بنفس الهدوء .

– كل هذه الامكانيات يجب ان نجندها لخدمة قضيتنا .. وبذلك نستطيع ان نصل الى ما نصبوا اليه .

قال جندى منفعلا .

– يقولون اننا سنحتل اسرائيل فى ٢٤ ساعة .

أجاب وليد فى حسم .

– هذا كناية عن قوتنا .

نهض حسين من بين الحاضرين وقال متحمسا .

– وليد خيرنا جميعا وطنيـة . الفرق بيننـا وبينه انه يزن الأشياء بميزان العقل .

فانبرى لحسين جندى قائلا :

– اذا استجبنا لصوت العقل دائما وأغفلنا الجانب الروحى فى الانسان يحق لنا الآن ان نرتاب من موقفنا ، فاسرائيل كما نعلم جميعا زرعها الاستعمار فى المنطقة ثم مد لهـــا يد العون بافاضة وسخاء وبدا هذا واضحا فى حربى ٤٨ ، ٥٦ والآن ونحن على أبواب حرب ثالثة سنحارب نفس الجبهة اسرائيل وقوى الاستعمار العالمى ، واذا قسنا الأمور بمنطق العقل فى ذلك نخلص بأنه لاقدرة لنا على مواجهـة الاســتعمار ولكن دعنى أقول لك ان القوى الروحيـة فى الانسان تصنع المعجزات فى وقت الشدائد والمصرى بالذات منذ أزمان بعيدة يملك هذه القوى الروحية الخلاقة .

رمقه وليد بنظرة اكبار واعزاز ثم قال :

ـ أصبت الحقيقة بقولك هذا وأقاسمك الرأى فى معظم ما قلته والفارق بين قولينا شعرة رقيقة ، ما أريـده هو امتزاج الاثنين فى بوتقة واحدة وبهما يصل الانسان غايته وبدون كلاهما يفقد الانسان طبيعته .

تشعب الحديث وتنوع واستطاع وليد فى النهاية ان يقنعهم بفكره ويأسرهم بمنطقه . وأخيرا تقـدموا الى طابور المساء وهبط الظلام وتكحلت الصحراء بدجنة الليل وانتشت القلوب بنســمات الصحراء الربيعية وأمسى الجنود فى خيامهم يتسامرون فقال حسين لوليد ضاحكا .

ـ يعجبنى فيك منطقك الأرسطى ، وأتمنى ان أحظى بنتفه منه لفكرى . ليستقيم أمرى .

ـ يبدو انك تجهـــل طبيعتى ياحسين ما أعنيـه ليس عقلا خالصا يفقد الانسان طاقته الروحية ولكن ما أبغيه هو وصـــول الانسان الى جوهر الأشياء بيقين خالص من كل الشوائب .

قال زهانه متسائلا :

ـ والصيد والصيادون ما رأيك فيهم يا وليد ؟؟ فنحن نخرج الى الصيد فى عرض البحر ونجهـل ما يكنه البحـر لنا من أرزاق اذا أتينا صيدا طيبا لهجت السنتنا بالشكر لله وان عدنا الى دورنا خاوين الوفاض قلنـا لأولادنا الله هو الرزاق الوهاب فارتســمت ابتسامة على وجه وليد وقال :

ـ تخرج الى الصيد ومعك عدتك ، زورقك وشـباك صيدك وخبرتك بالبحر ، ثم عليك بعـد ذلك ان ترضى بما تناله من رزق وعلى هذه الوتيرة نطبق حديثنا . نستعد للحرب بالعدة والعتاد

وبسالة الرجال وبحنكة القواد ، وعلينا بعد ذلك أن نرضى باقدارنا
قال حسين ضاحكا :

— تصيب قلب الحقائق دائما يا وليد ٠

وظلوا يتسامرون الى أن داعب الكرى أجفانهم ثم غطوا فى نوم عميق ٠

استدعى قائد الوحدة وليد وطلب منه ان يكف عن محاضراته للجنود لأن الظروف العسكرية لم تعد تسمح بذلك ٠

وكانت الاستعدادات قد بلغت ذروتها فى وحدات الجيش المختلفة وقد كان ذلك نتيجة للموقف المتوتر ٠ فالقوات الاسرائيلية أخذت توالى حشودها على الجبهتين المصرية والسورية ومصر مستمرة فى حشد قواتها تأييدها المطلق لسوريا ٠ والشعوب العربية فى كل مكان تعيش فى حماس كبير ٠

وفى ليلة ملفحة بالظلام ، استيقظ الجنود على نوبة قيام فنهضوا مسرعين وكان الرقيب فرحات يزرع الوحدة من أقصاها الى أدناها ، ويدعو الجنود الى التجمع ٠ وفى دقائق معدودة تجمع كل جنود الوحدة وتصدرهم قائدها ومعه كل الضباط وصف الضباط والجنود ثم أعلن القائد بصوت كهزيم الرعد ٠

— كل جندى يعد عدته استعدادا للرحيل ٠

(٤)

تراءت لهم عن قرب مدينة القنطرة بقسميها الشرقى والغربى رابضة على ضفتى قناة السويس وقد غصت بالعتاد الحربى ، أقوال الدبابات والمدرعات والسيارات المحملة بالجنود والذخيرة والتموين، والمدافع المحمولة خلف سياراتها والجنود بخوذاتهم اللامعة وهم يطرقون جنباتها فى نشاط وحيوية • وانعطفت بهم السـيارات ناحية الشريط الحديدى ثم قفز الجنـود الى الأرض وانتظموا فى صفوف متراصة ، ووقف كل قائد بجوار فصيلته ثم تصدر مجموعات الجنود قائد الوحدة مرفوع القامة صـخرى الصدر وأخذ يتفرس وجوه الجنود ثم قال وعيناه تتألقان ببريق لامع •

ـ علينا أن نمتثل لكل الأوامر وأن ننفذها بدقة ، ونحن الآن سنتوجه الى معسكر القنطرة شرق •

اندفع الجنود نحو الكوبرى يعبرونه فى نشاط وحيوية الى الشاطىء الشرقي من المدينة وكان فى مقدمتهم الرقيب فرحات • ثم دخلوا المدينة وأخذوا يخترقون شوارعها متجهين الى المعسـكر الذى أعد لاستقبال كل القوات المتجهة الى الجبهة ، وكانت الدوريات العسكرية تقعقع بدباباتها ومدرعاتها وتطل من بين دروعها الصلبة رؤوس الجنود وكان أهالى المدينة قد خرجوا عن بكرة أبيهم يجوسون الشـوارع والطرقات ويلوحون للجنـود بأيديهم والأطفال يجرون خلف الدبابات فرحين مسرورين والنساء يشخصن البصر من نوافذ بيوتهن تكحل أعينهن الفرحة ، والبدويات المحجبات العائدات من

أصقاع الصحراء يقفن فى الطرقات والمنحنيات ويرفعن أيديهن الى السماء يتضرعن لله بالدعاء .

كانت المدينة بأسرها كخلية النحل لاتهمد فيهـــا سكنه ولا تغمض لها عين والوف من القوات النظامية وفئـــات من قوات الاحتياط وهم فى ملابسهم المتباينة يطرقون الشوارع ويجلسون فى المقاهى يحتسون المشروبات المتنوعة .

★★★

وقف وليد داخل المعسكر يرنو الى جموع العسكريين الغفيرة التى ملأت جنبات المعسكر والتى أحاطت أسواره من كل اتجـــاه فبهرته تلك المساحات الصفراء الغارقة حتى أذنيهـــا فى أحاديث الساعة . الحرب واحتمالاتها والظروف المحيطة بها ووقدة الحماس المطلة على الوجوه فشط به الخيـــال بعيدا الى قريته العذراء المزدانة بسندس الربيع وبساط خضرته وشاقه الهوى الى حبيبته وداد تم هزته انات موجعه عندما عاودته أطياف أمه وهى ترفل فى ارديتها البيضاء فاطرق رأســـه الى الأرض وغرق فى سهوم عميق الى ان أيقظه من غفوته صوت زهانه وهو يقول ضاحكا :

– أصبحت الآن يابطل فى القنطرة شرق وغدا ستكون فى سيناء وهنا تكمن همم الرجال . قال وليد فى التو :

– هذا ماكنت أنتظره .

– لماذا اذن شرودك ؟

– كنت أفكر فى أمى ورحيلى عنها .

– لاتفكر كثيرا يا وليد ودع الأمور تسير على منوالها المقدور فرفع رأسه اليه وقال محتجا :

ـ أنا لا أفكر فيما نحن فيه ولكن أفكر فيما هو أهم • أفكر اننا خرجنا من دورنا ونحن نحمل على آكفنا أرواحنا • أفكر بأن الحياة هنا أصبحت تختلف تماما عما كنا نعيشها من قبل • ولهذا تأخذني الذكرى بعيدا خلف أسوارنا •

قال زهانه وهو يمسح بيديه على فوديه :

ـ الشهادة ـ الشهادة يا وليد مطلبنا الآن •

ـ نريدها شهادة خالصة من الزيف •

ـ صدقت القول يا وليـد فهنـاك من يذهب للميدان وهو مضطر •

ـ فهمي مثلا ذهب ليحارب مثلي ومثلك واذا مات اعتبروه شهيدا مثل أي انسان ويستوى بذلك الصالح مع الطالح •

قال وليد منفعلا :

ـ من الخطأ الفادح ان يبقى أمثال هؤلاء في الميدان •

وقال زهانه ساخرا :

ـ انه موجود رغم أنفه •

ـ هنا تكمن المأساة •

ـ كيف • ؟

ـ لأنه يفتقد الغاية التي يحارب من أجلها •

ـ معه مدفعه مثل بقية الناس •

قال وليد والحماس يتفجر من وجنتيه :

ـ سلاح بدون ايمان لا قوة فيه •

استدار زهانه برأسه وأخـذ يضحك بملء فمه وقال وهو يشير بأصبعه الى ركن داخل المعسكر :

– هاهو فهمي يحوم ويدور كالكلب الذى يبحث عن جيفه

نظر وليد الى فهمي ثم هز رأسه وقال ساخرا :

– انى ارثى لحاله ·

فاندس الرقيب فرحات بينهما قائلا :

– حان وقت النزال يارجال ·

قال وليد :

– لنا الفخر ان يكون بيننا شخص مثلك ·

وأضاف زهانه قائلا :

– وجودك معنا يزيدنا ثقة بانفسنا ·

وضع الرقيب فرحات يديه فى جيب بنطلونه وقال مزهوا بنفسه :

–الجيش يزخر بأمثالى ·

قال وليد ضاحكا :

– ولكنك تفوقهم جميعا ·

قال حسين موجها حديثه الى الرقيب فرحات :

– متى سنرحل ؟

أجاب الرقيب والفرحة تعلو وجهه :

– ربما فى الصباح ·

قال زهانه مسرورا :

ـ يمكننا التجول فى المدينة الآن ٠٠ ؟

قال الرقيب فرحات :

ـ على شرط ان تلتزموا بالمواعيد ٠

برح الرفاق الثلاثة وليد وحسين وزهانه المعسكر الى مقهى بداخل المدينة وكان المقهى مكتظا بالجنود وقد أخذ بعضهم يكتب خطابات الى ذويهم وآثار انتباه وليد جنـدى احتياط يتفجر وجهه بانفعالات متباينة تقدم اليه وحياه وجلس بجواره وتحدث معه فعرف منه انه حوذيا قد استدعى الى الاحتياط ٠

فقال له وليد :

ـ أتريد ان أساعدك فى كتابة أى شىء ؟

أجاب الحوذى فرحا :

ـ شكرا أستطيع ان أكتب ٠

ثم أمسك مجموعة من الخطابات وقال له :

ـ اقرأ ٠٠ ما فيهم نحن أخوة ٠ وان كان خطى رديئا ٠ فقرأ وليد مافى السطور وكانت تنم عن كتابات خرساء ولكن فى جوهرها مشاعر حية ٠ فياضة بالعواطف وكانت المعانى تتلوى بين السطور تنفجر تارة بألفاظ عامية تبلغ الذروة فى تصويرها لموقف انسانى معين ٠

واسترعى انتباهه فى كل ما قرأ لفظ ظريف وعنـدما سأله عن ذلك أجاب الحوذى وبسطة السرور تملأ وجنتيه :

– ظريف .. هذا .. هو حصانى .. حصان الحلوة والمرة
وكان يطلب كل من يكتب اليه وصيته بظريف .

ثم ترك وليد الحوذى وقلبه مشحون بانفعالات شتى .

وكان الليل قد هبط والمدينة تزدهى بأفراحها فقد أخذ الرجال والشباب يتوافدون جماعات على الأندية والمساجد وأخذوا يتبارون بالكلمات عبر الأثير وينثرون الاهازيج الوطنية حارة ملتهبة وكانت الأغانى الوطنية تملأ المدينة حماسا . وكانت جماعات الدفاع المدنى تسير فى طوابير منتظمة وتحمل على ظهورها البنادق وبين اللحظة والأخرى يزعقون بنداءات النصر فى حماس وقوة وظل هذا المهرجان الشعبى المتوقد بالحماس يملأ أسماع المدينة الا أن ترامت الظلمة وتراكمت كتل الظلام فى ربوع الصحراء المترامية .

ثم عاد الرفاق الثلاثة وهم يحملون فى قلوبهم صورا مشرقه للمدينة الحبيبة . وعلى باب المعسكر قابلهم فهمى متجهم الوجه وقال لهم فى وجل :

– يقولون اننا سنرحل الى العريش غدا! .

لكز زهانه حسين فى كتفه قائلا ٠

ـ انهض الرقيب فرحات يزعق بصفارته ٠

تثاءب فهمي وهو كسيف الوجه أما وليد فنهض مسرعا ٠ ثم اندفع الرفاق الأربعة الى الخارج وكان الصباح فى بواكيره الأولى والرقيب فهمى يدعو أفراد وحدته الى التجمع بالخطوة السريعة فهرولت جماعات الجنود الى مواقعها فى الطابور وتصدرهم القائد يوسف وعلى الفور أصدر أوامره اليهم بالتحرك سريعا الى العربات٠ فتدافع الجنود اليها نشطين ٠

وانطلقت السيارات تشق عباب الطريق وأخذ الجنود فوق عرباتهم يتحدثون ويتجادلون ويصفقون بأيديهم ويرقصون ويغنون٠ وكانت السيارات تطوى المسافات فى سرعة وتشق جبال الرمال الممتدة المتراشقة بجماعات الجنود ٠ ثم لاحت عن قرب أشلاء مبانى مغطاة بخوذات لامعة وتدافع الى أذنى وليد صفير القطار وهو يجر عرباته الرمادية داخل المحطة فاخضرت الأشياء من حوله وتوهجت الصور أمامه ٠

ونا حسين الى وليد وقال هامسا :

ـ هاهو قطار الجبهة ٠

أضاف فهمي :

ـ هل هذا يفت من عضدك ٠

أضاف فهمى ٠

ـ يفت من عضدنا جميعا ٠

رمق وليد فهمى بنظرة قاسية وقال محتدا :

ـ كف عن هذا الاسفاف يا فهمى ٠

قال فهمي وهو كسيف الوجه :

ـ انك تستصغر من شأني دائما ياوليد ٠

قال حسين منفعلا ٠

ـ لأنك تسرف فى هذا الأمر كثيرا يا فهمى ٠

وأضاف وليد موضحا موقفه :

ـ يجب علينـا أن نعيش الموقف بعقول واعيـة وبقلوب مبصرة ٠

فنكس فهمي رأسه الى الأرض ولاذ بالصمت ٠

اقتربت السيارات من محطة السكة الحديد وكانت غاصة بالجنود واتخذ أفراد الوحدة مواقعهم وكان كل جندى يحمل فى يده سلاحه خلف ظهره ومعداته ٠

ثم أقبل القطار بصفيره وقضبانه المهتزة من أمامه ٠٠ فتدافعت همهمات الجنود وارتفعت صيحاتهم تجز الفضاء وتعلن فى فرحه غامرة (هذا قطار الجبهة ٠٠ قطـار سيناء) ، ووقف القطـار وتدافع اليه الجنود من أبوابه ونوافذه ووقفت على رصيف المحطة جماعات من قوات الصاعقة بأجسامهم الهرقلية وبسواعدهم القوية

وبوجوههم الممتلئة بالارادة والتصميم وهزت صيحاتهم المدوية فى عنان السماء الجماهير فتعالت من بين حشـــودهم المكتظة أهازيج حماسية وأناشيد وطنية تغنى كلها للمعركة ووقفت الأمهات يمسكن باطفالهن ويرفعن أيديهن فى حـــرارة مودعين أزواجهن وأولادهن ثم تحرك القطار فتعالت الصيحات وارتفعت الأيدى فى الفضـــاء وارتعشت الكلمات فى الأفواه ٠ الى أن برح القطار المجموع وانطلق فوق القضبان يشق عباب الطريق ٠

جلس وليد على مقعده بجوار النافذة وأخذ يرنـــو الى الفضاء الرحيب وهو يلقى من خلفه المبانى والأشجار والكائنات والبشر ٠ وظل القطار يتلوى على القضبان ويزعق بصفيره ويزيـــل من ورائه حبات الرمال وكانت تنتفض وترتعش فوق بحرها الرملى ٠

وراح الجنود فى مسيرة الطريق يتبادلون أطراف الحديث ٠

فقال رجل من قوات الاحتياط ما زال يرتدى جلبابه :

ـ اليهود كفار والاسلام يحضنا على قتلهم ٠

وقال آخر مؤيدا كلامه :

ـ انهم شعب همج لا قوانين تضبط أمورهم ٠

وتدخل فى الحديث ثالث يرتدى القميص والبنطلون :

ـ نحن لانحارب اليهود لأنهـــم يهود ولكننا نحاربهم لأنهم سلبوا فلسطين وأصبحوا أداة الاستعمار فى منطقتنا العربية ٠

نظر اليه صاحب الجلباب طويلا وقال ضاحكا :

ـ يبدو انك متشائم يا أفندى ٠

قال محتدا :

– ما أقوله هو الصواب .

تدخل حسين قائلا :

– اليهود فعلا أداة الاستعمار فى المنطقة ولهذا السبب يجب محاربتهم بكل قوة .

وأضاف وليد بصوت هادىء :

– يجب معرفة عدونا ليسهل علينا قتاله .

قال صاحب الجلباب منفعلا :

– سندمرهم فى ٢٤ ساعة .

فهز فهمى رأسه وقال ساخرا :

– فى أقل من ٢٤ ساعة .

رمقه وليد بنظرة غضب وقال محتجا :

– لايبلغ بك التهكم الى هذا الحد يافهمى .

وحمى وطيس الجدال بين الجنود فنهض الرقيب فرحات من مقعده وذهب اليهم مسرعا وقال بصوت جهورى :

– تناظروا خيرا يا أخوه ، الحق معنا ، والله سينصرنا على القوم الفاسقين .

انبرى لفهمى رجل متهدل الكرش غائر العينين قائلا :

– تخاف الحرب وأنت ما زلت فى شبابك . وأنا لا أخافها ولى خمسة أولاد .

قال فهمى متسائلا :

ـ كم عمرك يا دفعة ... ؟

ثلاثة وثلاثون عاما .

حدق فهمى فى وجه الرجل طويلا وأخذ يضحك بصوت مرتفع فشعر وليد بمراحل الغضب تغلى فى أعماقه ثم رشق فهمى بنظرة غاضبه وقال .

ـ ما يضحك .. ؟

ـ حضر ليحارب فى مثل هذا السن وله من الأولاد خمس أفراد . قال وليد مندهشا :

ـ ما الغرابة فى ذلك ، اليهود يحاربون وهم فى أعمار تزيد على ذلك بكثير .

ثم نظر وليد الى الرجل المتهدل الكرش وقال له متسائلا :

ـ كم مرة استدعيت للتدريب يا دفعه .

قال الرجل وابتسامة ساذجة تعلو وجهه .

ـ لم استدع منذ خمس سنوات .

تفرس وليد الرجل بعينه من أعلى رأسه الى اخمص قدميه .

قفزت على وجهه امارات الدهشة فاطبق شفتيه ولاذ بالصمت.

★★★

ظل القطار يطوى الطريق ويصلصل بعجلاته الحديدية وعلى امتداد البصر كانت تتناثر وحـدات الجنـود بأسلحتهم المختلفـة والجنود يقفون من حولها فى ثبات وقوة تحت لظى الشمس المحرقة

ثم لاحت عن قرب مدينة العريش متلفحة بخضرة النخيل وتضوى ببيوتها ومآذنها ٠

ونزل وليد مع رفاق وحدته من القطار فى محطة الابطـال وكانت مكتظة بأمواج الجنود وهم فى ارديتهم الصفراء وامتزجت جموعهم بأفراد قوات الاحتياط الغفيرة وهم فى أرديتهم الميدانيه وكان المكان أشبه بكرنفال كبير يحتفل بيوم عرسه ٠

تقدم قائد الوحدة أفراد قوته وأخذوا يهرســـون الرمـال بأقدامهم المتعبة ٠ ثم عرجوا ناحية طريق تسد جانبيه كثبان رملية مرتفعوا وارتقوا التلال ونزلوا منهـا فانتعشت وجوههم المجهدة عندما لفحتها نسمات البحر المخضلة بالرداء وشنفت آذانهم بأمواج البحر وهى ترتل تسبيحاتها فى تيه الصحراء السرمدى ٠ ثم بدت لهم الكتيبة شماءا يكتنفها سحر آخاذ ٠ مدافعها تمتد على الشاطىء بمواسيرها الحديدية الفارعة وجنودها بخوذاتهم الحديدية اللامعة يختالون فوق رمالها الصفراء المتوهجة تحت رقدة الشمس وخيامها الرمادية المضجعة برفق بين سامقـــات النخيل وظله المنثور فوق الرمال ٠

كانت بقعة الصحراء الملفحة بظلال الخضرة والمتوجة بصلب السلاح آية من آيات الحب الوطنى تنادى العاشقين فى تدله ٠ هاهنا تكون عظيمة أمتكم شامخة بسحرها فى كل صقع من أرضها الحبيبة وأمام بوابة الوحدة وعلى جانبى نخليتهـا السامقين وقف ضابط برتبة م ٠ أول ومعه مجموعة من صف الضباط يستقبلون بوجوه ممتلئه بالفرحة رفاقهم الجنود فى مواقعهم الجديدة ٠

★★★

ارتقى زهانه كثيبا رمليا وأخذ يحملق فى أسراب الأمواج العالية وهى تتصارع ثم تتلاشى ثم تمتد جســورا مترامية الزرقة

فى أعماق البحر اللجى ٠ فتراءت فى مخليتــه ذكريات رحـــلات صبره وكيف كان يخرج فى عرض البحر مـع رفاقه الصـــيادين ينشرون شباكهم وهم فى سعاده غامرة ويغنون ويتسامرون والأفق الفيروزى مطبق عليهم من كل جانب ثم امتدت به الذكرى الى أولاده فلذات قلبه وكيف كان يمكثون الساعات الطوال على الشـــاطىء منتظرين عودته ٠ وكيف كانت تكحل الفرحة عيونهم وتورد قلوبهم عندما يعود مهللا فى وجوههم ٠ وراحت به الصور الى زوجته وكيف كانت تتهادى اليه بوجهها البض وشعرها الليلى المسدول على صدرها المرمرى وتقول له وعلى ثغرها ابتسامة وضـــاءه مشرقة ٠ كل من رزقك الطيب الحلال ثم تقدم له أطيب الطعام والشراب وتقول له يحب داف، ليس لنا فى الدنيـــا سواك أطبقت الذكريات والصور على قلبه من كل جانب وأحاطت مقلتيه أطياف لا تنقطع ٠ فغرق فيها حتى أذنيه ٠ وأخذ رشاش البحر يبلل وجهه وملابسه دون ان يشعر بشىء من حوله وتقدم اليه حسين وربت على كتفه فلم يشعر فصاح فيه قائلا :

ـ فيما تفكر يا رجل ٠٠ ؟

فنظر اليه زهانه بعينين غارقتين فى الدموع ولم تنطق شفتاه بكلمة فأمسكه من يده وذهب به الى الخيمة ٠

وقال مندهشا لرفاقه :

ـ زهانه يبكى يا وليد ٠ هل تتخيل ذلك ٠٠ !!

فدنا وليد من زهانه وقال متأثرا :

ـ تبكى يا زهانه ٠٠ ؟

قال زهانه وهو مرتعش الشفتين :

ـ حن قلبى لأسرتى يا وليد ٠

هز حسين رأسه قائلا :

ـ تبكون أسركم وأولادكم وأنا أبكى وحدتى ووعزتى ٠

ثم رنا بعينه الى الأمواج وهى تفيض على الشــاطىء وأضاف قائلا بصوت واهن :

ـ فقدت أمى فى طفولتى وكنت وحيدها ثم مات أبى كمدا عليها وضمتنى عمتى الى أولادها ولكنى كنت أشـــعر فى جوانحى بغربة قاتلة وأحزان سقيمه ٠

ثم زفر زفرة طويلة وقال متأثرا :

ـ ولاذ قلبى بحب كنت أرى فيه الخلاص من آلامى ولكننى فقدته أيضا بحمقى وبسوء تصرفى ٠ وأنخرط فى بكاء طويل ٠

قال وليد مواسيا :

ـ اذا تركنا قلوبنا لاحزاننا سنموت كمدا ، ونحن الآن فى مسيس الحاجة الى رباطة الجأش ٠

قال حسين وفى عينيه شرود عميق :

ـ انها لحظات ضعف تصيب الانسان عندما يشعر بالغربة ٠
وعاد الى سهومه وظل فهمى بالخيمة وعلى وجهــه امارات العبوس ثم قال متجهما :

ـ انظروا هؤلاء ؟

أطل الثلاثة برؤوســـهم من الخيمة فرأوا أمواجا من البشر تتدفق الى المعسكر دون انقطاع ٠

قال زهانه متسائلا :

ـ من هؤلاء ؟

أجاب فهمى ساخرا :

ـ قوات جديدة من الاحتياط مازالت فى لباسها المدنى قال حسين وغصص الحزن ما زال كامنا فى حلقه :

ـ عددهم الآن يماثل القوة الأساسية للمعسكر ·

وأضاف وليد ووجهه يتميز ضيقا وضجرا ·

ـ كيف يحدث ذلك ؟ خطأ كبير وعواقبه وخيمة ·

أجاب فهمى ودلائل التشفى على وجنتيه :

ـ قلت لكم اننا نخطىء دائما فى تقدير أمورنا ·

وران الصمت على الخيمة ولم يقطعه ســـوى دخول الرقيب فرحات بصحبة جنديين يحملن فى بطانية أرغفة مقدده ·

قال الرقيب فرحات وهو باسم الثغر :

ـ أربعة أفراد :

ومد يده الى البطانية أخرج منها رغيفين وقال ضاحكا :

ـ رغيفين لكم ·

قال فهمى غاضبا :

ـ كل فرد نصف رغيف !

قال وليد ثائرا :

– لماذا هذه الفردية في القول منك دائما ٠٠ ؟ كل اثنين في رغيف ٠ فأجاب فهمي وهو مربد الملامح :

– فلسفة أم نصح تسديه لنا ؟

قال وليد وهو متجهم الوجه :

– أحب ان تكون المشاركة جماعية في كل شيء ٠ لأن الموقف يقتضي منا ذلك ٠ وصغائر الأشياء تلك توضح نقائص الانسان وهذا ما يجب ان ننبذه بحسم ٠

ورشق الرقيب فرحات فهمي بنظرة ازدراء وقال :

– انت مثـل غراب البين تنزل علينـــا بنعيق منفر فتقتل الفرحة من صدورنا ٠

اصطنع زهانه ابتسامة وقال للرقيب فرحات ضاحكا :

– لا يغضبك قوله انه يحب الخبز المقدد كثيرا ٠ ثم أخذ ينثر النكات والضحكات وضحك الجميع بملء قلوبهم وسكت الرقيب فرحات وتفرس وجوه الرفاق الأربعة وقال :

– مع كل ما حدث سوف أذكر لكم السبب في ندرة الطعام ثم سكت برهة ورمق فهمي بنظرة عتاب وقال :

– فوجئنا بحضور قوات الاحتياط بهذه الكثرة ولهذا أصبح لزاما علينا مشاركة الجميع في كل شيء فدخل وليد قائلا :

– ليس الأمر أمر طعام ٠ ولكن هناك ما هو أفدح ٠ وبلغ رضابه في ضيق وأضاف :

– هذه الأعداد الغفيرة من قوات الاحتيـــــاط الغير مدربه ستكون عبئا علينا ولن يجدى وجودها في شيء ٠

قال الرقيب فرحات ضاحكا :

ـ ومن أدراك انهم غير مدربين ؟

ـ الحقيقة تقول ذلك ·

دخل عليهم النقيب يوسف قائد الوحدة وألقى عليهم السلام وقال متسائلا :

ـ فيما كنتم تتحدثون ؟

أجاب وليد :

ـ نتحدث عن أفراد الاحتياط يا أفندم أقول انهم غير مدربين وأعتقد انوجودهم معنا هنا خطأ كبيرعليهم وعلينا ولهذا أرىوجودهم هناك خلف القوات النظامية ·

ابتسم النقيب يوسف وهز رأسه قائلا :

ـ يعجبنى فيك يا وليد فطنتك للأشياء من حولكم وهذا أمر أقدره فيك ·

ثم لمعت عيناه بنور ساطع وقال :

ـ ولكن ليس هـذا وقت طرح المشاكل فيجب علينا أن نحتويها ونحل عقدها ·

وأضاف بصوت مملوء بالثقة :

ـ اطمأنوا يا جنود لقد بحثنا هذا الأمر ووضعنا له الحلول ثم أصدر أوامره للرقيب فرحـــات بجمع أفراد الاحتياط فورا ثم غادر الخيمة وراح يطوف على كل الخيام ·

قال زهانه للرقيب فرحات ضاحكا :

– اذهب هناك تراهم يتوسدون الفراش الوثير ، فى الحفر وفوق الكثبان وتحت أشجار النخيل وأنا على أتم استعداد لمشاركتك فى هذه المهمة الوطنية .

تم تشكيل قوات الاحتياط الى جماعات يرأس كل منها جندى نظامى مدرب وبدأ تدريبهم على الأسلحة الخفيفة والقنابل اليدوية والطعن بالسونكى وأفسح لهذا الغرض مكانا شاسعا على الشاطئ. وأشرف القائد بنفسه على كل ما يدور داخل الوحدة .

وساد المعسكر الحركة والنشاط والحيوية وتتابعت خدمات الرقيب فرحات المتتاليـــة وكان جذلا مسرورا لكل ما يقوم به من مهـام .

ومن حوله كان الجنود خليـــة نحل تعمل فى كد ومثابرة ونشاط .

وقف حسين مسرورا بجوار وليد وكانا يحفران مع بقية جنود الموقع الدشم والخنادق فى أنحاء الوحدة .

ولوح حسين بيده فى الفضاء وقال مسرورا :

– كان حماسى من قبل مشـــوبا بالحذر اما الآن فقد زال هذا الأمر .

قال وليد متحمسا .

– للقيادة أثرها الكبير فى ذلك يا حسين .

وتقدم زهانه اليهما وكان يلوك بين فكيه كسرة خبز جسافة وقال ضاحكا :

ـ كافأني الرقيب فرحات لأنني حفرت أكثر من المقرر لي٠ دفعه حسين في صدره بخفة قائلا وهو يلهث :

ـ يالك من سعيد الحظ دائما، تأكل الخبز وتترك الجوع ياكلنا ٠

أشـار زهانه بيـده الى رقيب أول منبعج البطن ومبروز الشاربين وقال هامسا :

ـ انظر الى هذا الفظ الغليظ القلب ، لقد رأيتـه في هذا الصباح يأكل علبتين بولوبيف ومعهما وعـاء كبير من السـلاطة اللذيذة الشهية ٠ فأخذت أنظر اليه دون أن أشعر وكانت سكاكين الجوع تنهش أحشائي ٠

فرمقني الرجل بنظرة غاضبه وقذفني بسيل من الشتائم ٠

ـ قال حسين ثائرا ٠

ـ بلغ القائد يوسف بما حدث ليعاقبـه على فعلته المشينه تلك ٠

قال زهانه :

ـ أخاف معاقبته وبعدها سـيمتد أثرها علي وذلك بحيلة الشيطانيه ٠

قال وليد مؤيدا حسين :

ـ انه يستحق أشـد العقاب لأنه المسئول عن المطعم وهذه امانة يجب أن يراعي ضميره فيها ٠ وبينما هم يتجادلون ويتبادلون

أطراف الحديث ٠ دوت فوقهم طائرات منخفضة بسرعة البرق وتتبع ذلك قصف المدافع عن قرب ولاحت على مرمى البصر ألسنة النار فزعقت صفارات الانذار وفى التو قفز الرقيب فرحات وسط المعسكر وأخذ يدعو الجنود بصوت عال مرتفع :

– غارة للعدو ، انتشروا فى المواقع ٠

جثى زهانه على ركبتيه وقذف بنفسه فى أقرب حفرة ٠

(٦)

التصق حسين بوليد وهو في خندقه وقال والرعده تسرى في جسده ٠

ــ العدو يضربنا بطائراته ٠

رنا وليد الى الأفق وهو ينفث الدخان الأسود وقال مرتجف الصوت :

ــ انها الحرب ٠

ــ يكاد القصف يصم اذني ٠

ــ اننا مازلنا في اللحظات الأولى ٠

ــ هناك أكثر من ذلك ؟

ــ لم نر منها شيئا حتى الآن ٠

مرقت من البحر طائرتان ودارتا حول المعسكر ثم انقضت احداها على الثكنات فدوى على أثرها انفجار كبير فانبثقت ألسنة من اللهب تجز قلب الفضاء ٠

فتحشرجت أنفاس حسين وقال والكلمات ترتعش بين شفتيه :

ــ نحن نشرف على الهلاك ٠

صاح فيه وليد قائلا :

- لاتنبس بأى كلمة ٠

اهتزت جنبات الوحدة بقذائف البازوكا أخذ يطلقها أفراد من سلاح المدفعية كانوا يتدربون بها على الشـــاطىء المجـــاور للوحدة ٠

وظلت تطارد الطائرات بدون جدوى ٠

واندفع الرقيب فرحات من دشمته وانطلق فى انحاء الوحدة يدعو الجنود الى الانتشار فى مواقعهم الميدانية على الشاطىء فتدافع الجنود حاملين السلاح الى مواقعهم ، وكانت بطارية الوحدة تشمل ثلاث مدافع ١٥٥ م تعززها مجموعة من مدافع م ٠ ط ثم أسلحة خفيفة من الرشاشات والبنادق الخفيفة ٠

هذا بالاضـافة الى شبكتى الرادار البحرى والجـوى أجهزة اللاسلكى والخطوط الميدانية وبرج المراقبة ٠

وبينما كان حسين يهم مسرعا لاتخاذ موقعه على الشاطىء رأى على قضبان السكه الحديد جثه جبت رأسها وبترت ذراعاها وتدلى اللســان من الفـم مضرجا فى الدماء ٠ فظهر الارتيـاع على وجهه وارتجفت سرائره وشعر بغثيان ودوار شديدين فكاد ان يهوى على الارض فالتقطه وليد بين يديه ثم جذبه بعنف الى الموقع ٠

فقال حسين مذعورا :

- رأيت الموت فى صورته البشعة ٠

- الحرب موت ودمار ٠

قال حسين والألفاظ تحترق فى حلقه :

- صورة الرجل المذبوح تكاد تفقدنى صوابى ٠

ـ لا تفكر فى هذا الأمر كثيرا ٠

ومضى حسين قائلا بصوت جاف مخنوق :

ـ انه الموت ، انه الضياع انه الفناء ٠

قال وليد وهو يستشيط غضبا :

ـ ان لم تنزع من رأسك هذه الصور ستؤدى بك للجنون
حدق حسين الى وليد بعينيين قلقتين ولاذ بالصمت فدفعه وليد دفعه خفيفة فى ظهره وقال بنبرة جد :

ـ امسك رشاشك جيدا وانتبه بكل حواسك لكل ما يدور من حولك ، هفوه واحده ستفقدك حياتك ٠

• • • • •

طفقت طائرات العدو تترى وتقذف الموقع وتدور من حوله ثم تدبر الى سماء الصحراء المترامية ٠

ومضى جنود اطقم المدافع المضاده للطائرات يتصـــدون لها ببسالة وجرأه عظيمتين ، وبقيت السماء فى الموقع مكشوفه لا غطاء جوى يحميها وتزايدت كثافة الهجوم واشتدت غاراته وتجلد أفراد الموقع فى أماكنهم يتحملون فى صبر ما فوق طاقة البشر ، والتصق الرقيب فرحات بمدفعه الساحلى وراح يحدق بعينيه بين السفينة والأخرى نحو الأفق المطبق على البحر الفيروزى فينتابه الغيظ ويعتريه الكمد ثم ينظر الى الجنود من حوله ويقول فى ضيق :

ـ لم يرزقنا الله حتى الآن بأى قطعة بحرية معادية ٠

ثم يربت على فوهة مدفعه بيده ويقول منفعلا :

ـ أريد أن أصفق لداناتك المتوحشة ٠

فيرد عليه جندى بهدوء ممزوج بالمرارة :

ـ لاتأتينا من البحر سوى أسراب الطائرات ·

ويتساءل آخر حائرا :

ـ أين طائراتنا ؟

فيشرأب الرقيب فرحات برأسه ناحية البحر ويشير بأصبعه الى الأفق الأزرق ويقول متفائلا :

ـ هناك فى تل أبيب تضرب طائرات العدو ·

ثم يصيح المذياع فى بيانات متتابعة ، اسقطنا للعـــدو ·· طائره فتعلو الفرحة وجوه الجنود

ويصيح أحدهم متحمسا :

ـ سنسحق العدو ·

ويلمع بريق متوهج فى عينى الرقيب فرحات ويقول مزهوا :

ـ سأعود الى أهلى وأنا مرفوع الهامة ·

ثم تطبق على الموقع طائرتان قاتمتا الزرقه وتلقيا بقذائفهما فتغوص معظمها فى قلب الرمال دون أن تنفجر ·

فيرفع الرقيب فرحات يده فى الفضاء قائلا :

ـ سيعمى الله بصرهم دائما ·

ـ ويصرخ جندى امتلكه الخوف :

ـ لن نحتمل أكثر من ذلك ·

فيرشقه الرقيب فرحات بنظرات ناريه ويقول مهددا ٠

ـ صه ٠٠ لا تقل هذا الكلام مرة ثانية ٠

ثم تمرق طائرة بسرعة الشهب وتلقى بشحنة كثيرة من قذائفها ويسقط على اثرها فرد من قوات م ٠ ط مثخنا بالجراح فيندفع نحوه جنديان بسرعة ويحملاه بعيدا عن عيون الجنود وينزف جرحه بغزارة ويتسع ٠٠٠ وتصحبه آلام مبرحة الى أن يفارق الحياة فتغيض العبرات من أعين الجنود وترتعش الأيدى على الزناد فيسرع اليهم قائد الوحدة ويصيح فيهم :

ـ اثبتوا فى مواقعكم وانتبهوا لغارات العدو بدقة ٠ واستمر أفراد م٠ط يدافعون وسط ظروف بالغة القسوة فاحتضن كل جندى مدفعه وطفق يملأ السماء بقذائف اللهب كلما وافتهم الطـائرات وكانوا لايأبهون بما يدور من حولهم ٠

ملأ وليد مدفعه الرشاش بالرصاص وقال متأثرا :

ـ اطقم المدفعية م ٠ ط يحاربون ببساله تفوق الحد ٠

فرد حسين وهو يلفظ الكلمات بمرارة :

ـ حملوا وحدهم عبء القتال ٠

ومضى وليد قائلا :

ـ جيشنا يزخر بالكثير منهم ٠

ـ لو أتيح لمدافعنا الساحلية القتال لحقق الرقيب فرحات معجزات خارقة ٠

ورنا وليد الى الرقيب فرحات وهو يلتصـق بمدفعه وقال منفعلا :

– قلبه يقطر حزنا لوقوفه دون قتال .

أطرق حسين مليا ورفع رأسه قائلا :

– لقد كان ينتظر هذا اليوم ليحقق بطولات عاش يتمناها .

ثم استدار حسين برأسه ولقط بعينيه فهمى وهو فى حالة مذرية .

فالتفت الى وليد وقال ساخرا :

– انظر .. فهمى يسير على أربع .

نظر اليه وليد وقال وهو مزريا ما رآه :

– سيموت رعبا .

– امثاله لايموتون .

قال وليد وعلى شفتيه ابتسامة واهنه :

– يموت كل ساعة مرة .

اندفع سرب الطائرات وأخذت تحوم فى أنحاء الموقع بارتفاع منخفض وانقضت أحدهما على شبكة الرادار وقذفته بشحنة كبيرة من المتفجرات فتناثرت أشلاءه فوق الرمال فصاح العريف عباس قائد طقم مدافع م . ط وتطاير الشرر من عينيه ثم راح يصب من مدفعه سيلا من القذائف الى أن تمكن من اسقاط طائرة وهى تولى الفرار ناحية البحر وارتطم انفجارها الرعدى فى الفضاء ثم تهاوت مشتعلة فى عرض البحر .

كبر الجنود فى مواقعهم وارتفعت صيحاتهم تشق الفضاء وسرت فى اعطافهم مشاعر حارة .

فارتقى الرقيب فرحات قاعدة مدفعه وقال بصوت رعدى ٠

ـ بارك الله فيك يابطل الابطال ٠

واندفع قائد الوحدة الى العريف عباس وقال والفرحة تملأ شغاف قلبه :

ـ نحن نحنى رؤسنا اكبارا لشجاعتكم ٠

رفع العريف عباس هامته فى فخر ولمعت فى عينيه ابتسامة وضاءة وتغلغلت فى أعماقه وقدة ـ حماس نارى :

قال وليد وقلبه يفيض بالفرحة :

ـ اتمنى ان اشاركك بطولتك ٠

وفى دقائق معدودة انقض سربان من الطائرات من قلب الصحراء وأخذت طائراته القاتمة الزرقة تدور حول المعسكر وتصليه بالنـار فأتت على كل أجهزة اللاسلكى ومزقت الخطوط الميدانية وشبت حرائق متفرقة فى أنحـاء الوحدة ٠ وسقط على أثر ذلك عدد كبير من المقاتلين ٠

وكان لهذه الغارة الوحشية أثرها الكبير على معنويات الجنود فاندفع جندى من وسط الموقع تعلو صفحة وجهه أمارات الفزع واخذ يصيح ويجأر قائلا ٠

ـ النار فى كل مكان ٠٠ أين طائراتنا ، أين طائراتنا ؟

فاسرع اليه القائد وامسكه من سترته وأطبق بيده على شدقيه وقاده داخل احدى الدشم ثم اندفع يجول فى ثنايا الموقع يستنفر

همم الجنـود على القتال ويدعوهم للصمود والتحلى بالجلد ويقول بصوت عال مرتفع :

ـ القتال واجبنا ومنتهانا ٠ طائراتنا تضرب العدو فى عقر داره الصمود هو شيمة الرجال وقت الشدائد ٠

التصــق الرقيب فرحات بمدفعه وقال وهو يهدر بصــوت عال :

ـ سنقاتل حتى الشهادة ٠ مصر الحبيبة أمانة فى أيدينا ٠

طل وليد من خندقه وصاح قائلا :

ـ لن نستسلم أبدا ٠

ونهض حسين من خندقه ولوح بيده قائلا ٠

ـ أرواحنا فداء لمصر ٠

وسط هذا الحماس المتفجر من قلوب الجنود مرقت طائرتان للعدو فطاردتها المدافع مطاردة مستميتة الى أن دوى ارتطام واحدة منها فى الفضاء ٠

ثم قال ووجهه يتألق بالفرحة :

ـ دمرنا الطائرة الثانية للعدو ٠

هتف الجنود للعريف عباس حتى انتشى ثملا بانتصاراته ٠ وفى التو انقضت الطائرة الثانية التى كانت تصحبها وتوجهت الى موقع أفراد م٠ط وانقضت عليه بوحشية ثم غمرته بوابل من اللهب وأنشق صدر العريف عباس بجرح غائر ظل يتسع وينزف بغزاره ٠ مال العريف عباس الى مدفعه ثم احتضنه وسقط على ماسورته مضرجا

فى الدماء · فتقدم اليه جنديان تسبح فى أعينهم الدموع وخلصا يده المطبقة على الزناد بصعوبة ثم حملاه وعلى وجههما حزن عميق ·

طفرت الدمــوع من أعين الجنــود · وأخضــل وجه الرقيب فرحات بالعبرات · ومزق الاسى قلب حسين · وسرت ظلال الحزن العظيم فى قلب وليد ·

وتقدم صول الوحدة وقال للقائد فى حسرة :

ــ لم يبق لنا سوى مدفعين م·ط يافندم ·

قال قائد الوحدة وهو يمســح من قلبه حزن كبير ليتحمل بالجلد ·

ــ نحن فى حاجة الى امدادات أخرى ·

أجاب صول الوحدة بصوت مخنوق :

ــ انقطعت وحدتنا عن أى اتصال خارجى يا أفندم ·

(٧)

حدق القائد بعين حزينتين الى المدافع وهى تمد فوهاتهـــا الثلاثة عبر الشاطىء وكانت الامواج تتلاطم فى عراك محتدم وتقذف وجوه الجنود الرابضين حول مدافعهم بالرزاز .

التفت القائد ناحية ضابط الاشـــارة وقال والحسرة تمـلأ وجهه :

– ستظل مدافعنا خرساء كهذا ؟

أجاب الضابط وهو يلفظ الكلمات بحرقة من قلبه .

– لم يسعدنا الحظ حتى الآن بأى قطعة بحرية معادية .

– العدو بذلك يضرب مواقع الضعف فينا .

أجاب الضابط وهو يلفظ الكلمات بحرقة من حلقه :

جال الضابط بعينين وحشيتين فى أنحاء الوحدة وقال .

– نحن لم نقصر فى تأدية الواجب يا أفندم .

هز القائد رأسه وقال ساخرا :

– نحن للأسف ندافع فى نطـاق محدود ولانعلم ماذا يحدث هناك على مستوى كل وحدات الجيش .

– أدينا واجبنا ولكن ما يمزق النفس حقـــا ان نعيش فى دائرة مغلقة ولا نعرف الأشياء من حولنا .

قال القائد وغصة في حلقه :

ـ هذا ما أراده العدو · يعزل وحداتنــا تماما عن بعضها ليعجزنا عن القتال الجماعي والخطة الموحدة ·

ـ رنا الضابط الى السماء الصافية الاديم وزفر زفره طويلة وقال في حسرة :

ـ سماؤنا هكذا ـ رحيبه لطائرات العدو ·

وسكت لحظة وعاد يقول للقائد متسائلا :

ـ ماذا يعني غياب طائراتنا طوال هذه المدة · ؟ قلبي يعتصر ألما لكل هذه الألغاز التي تحيط بنا من كل جانب ·

قال القائد بنبرة موجعة :

ـ كل ما استطيع فعله هو الاصرار على المقاومة والتمسك بموقعنا للنهاية واطرق الضـابط مليـا ورفع رأسه الى وجه القائد وقال :

ـ في ظل هذه الظروف الصعبة ؟

قال القائد موضحا موقفه :

ـ تمسكنا بالموقع أفضل من أي اجراءات أخرى فالسماء الآن في قبضة العدو ويستطيع ان يفعل بقواتنـــا ما يشـــاء في حالة تسيبنا وتفككنا داخل الصحراء تحت سماء مكشوفة ·

ـ بهذه الصورة ذخيرتنا ستنفذ أمام هجمات العدو السافرة والجنود الآن يحاربون وسط أصعب الظروف ·

أطبق القائد شفتيه وراح يضرب الأرض بقدميه وقال فى حزم ٠

ـ أوامرى لكم الاستمرار فى الدفاع دونهوادة رغم كل الظروف المحيطة بنا ثم برح مكانه وأخذ يتفقد أنحاء الموقع ٠ وكانت معظم المخازن والمبانى قد دمرت عن آخرها وشبكة الرادار قد تناثرت وبرج المراقبة قد تحطم عن آخره ، ورائحة البارود تشيع فى المكان كله والدخان الأسود يتصاعد من كل جوانب الموقع ٠ ومع كل ذلك مضى الجنود فى مواقعهم يقاتلون فى صمود ويتحلون بالشجاعه والثبات ، والأمل بالنصر مايزال يراود الكثير منهم ٠

وبينما كان القائد ٠ يتفقد الموقع سمع جئيرا حادا فهرع نحوه مسرعا ، فرأى جنديا مثخنا بالجراح ومن حوله جلس ثلاثة جنود يحاولون اسعافه وكانت الدماء تنزف منه بغزارة ٠

قال القائد لهم غاضبا :

ـ الجرح ينزف بشدة أين اسعافاتكم ٠

أجاب أحدهم :

ـ لاتوجد الاسعافات اللازمة يا أفندم ٠

تقلص وجه القائد بالضيق وقال :

ـ أين اسعافات الوحدة ؟

قال الجندى :

ـ احترق ودمر كل ما لدينا يا أفندم ٠

فانحنى القائد الى الجندى الجريح وأخرج من جيب سترته شريطه الطبى المعقم وأخذ يربط به جرح الجندى محاولا وقف نزيفه وبينما هو يجرى اسعافاته تدافعت الى أذنيه صرخات عالية

أعقبها همهمات وصيحات فالتفت خلفه فرأى شـلة من الجنـود تحيط بجندى يضرب الرمال بقدميه فى عصـبية ويلوح بخوذته صارخا :

(أتركونى ، أتركونى ، سأقذف بنفسى فى البحر ، العـدو سيقتلنى سيمزقنى ، طائراته لاتنقطع) ، فهب القائد واقفا واندفع مسرعا نحو الجندى والتقطه من أيدى الجنود وصـاح فى وجهه غاضبا :

ـ ماذا دهاك يا فهمى ٠٠ ؟

علت وجه فهمى امارات الفزع وسال الزبد من شفتيه وأخـذ يلتفت يمينه ويسـاره ويحملق بعينيه فى رعب وخـوف وصرخ صرخة مدوية ورفع الجندى الذى أمامه بقبضة يده فى قوة ثم نهض مهرولا فى أنحاء الوحدة فأندفع وليد وراءه وأنقض عليه وضغط على ذراعيه بسـاعديه القويين وطرحه أرضا وقال والغضب يتفجر من وجهه :

ـ الزم الهدوء والا قتلتك برشاشى هذا ٠

فجرى القائد أليهما بسرعة وازاح الرشـاش عن وجه فهمى وأعطى وليد حبلا وقال ٠

ـ قيده بهذا وامنعه عن الجنود ٠

ومضى وليد وشلة من الجنود يشدون وثاقه ٠

زفر القائد زفرة طويلة وقال للرقيب فرحات :

ـ ذخيرتنا ستنفذ ، اذهب واحضر لنا ذخيرة م٠ط من رئاسة الكتيبه وبينما كان الرقيب يهم بالانصراف أنقضت طائرة على الموقع٠

ودمرت سيارات الوحدة .

فامتلأ وجه الرقيب فرحات بالغيظ ورفع رشاشـــه وقال فى عصبية :

- قاتلكم الله يا أعداء الله ، قاتلكم الله يا أعداء الله .

وطفرت من عينيه الدموع .

وهز حسين رأسه فى أسى وقال .

- وبذلك تكون قد عزلنا تمـــاما عن أى اتصـــال خارجى يا وليد . فقال وليد وهو متجملا بالصبر :

- ثقتنا فى الله كبيرة .

- انى لا أرى بادره أمل لنا .

- ستأتينا النجدة قريبا باذن الله .

قال حسين ساخرا :

- نجدة : انى لا أرى الا الموت والدمار والدخان الأســـــود يغطى وجه الأفق من كل مكان .

- ستفقد الأمل فى يومك الأول ؟

قال حسين بعصبية :

- المأساة تطبق علينا من كل جانب .

قال وليد وحمرة الغضب تعلو وجهه :

- أى مأساة تعنى ؟

ـ نحن الآن لاندرى ما يدور من حولنا ٠

وضرب كفا على كف وراح يقول منفعلا :

يحدث لنا كل ذلك ونحن مانزال فى يومنا الأول ٠

ربت وليد بيده على كتف حسين وقال فى ثقة :

ـ الصحراء غامرة بقواتنا ٠

ـ أخشى ان يدمرنا العدو فرادى نحن نعجز عن تنسيق القتال جماعيا ٠

حملق وليد الى الأفق المخضب باللهب وقال والحيرة على وجهه :

ـ نعتقد ان العدو قد عزل قواتنا بهذه السرعة ؟

ـ هذا مؤكد فسريتنا مثلا قد عزلت عن كتيبتها والكتيبة بالتأكيد عزلت عن رئاستها وما حدث لنا حدث لباقى القوات وبذلك نكون قد تمزقنا تماما ٠

قال وليد والعبرات تفيض على وجنتيه :

ـ اذا تم ذلك سنواجه موقفا صعبا ٠

قطع حبل حديثهما صوت القائد وهو يدعو وليد بايقاف السيارات القادمة من ناحية العريش ليتقصى منها أى أخبار يعرفونها فقفز وليد سريعا من دشمته واندفع الى الطريق المعبد فرأى عن بعد ثلاث سيارات مدنية تشق الطريق بسرعة جنونية فحاول ان يوقف السيارة الأولى فلم يستطع وكذلك عجز عن ايقاف الثانية فتجمع حوله مجموعة من الجنود وسدوا الطريق بأجسامهم على السيارة الثالثة وعندما اقتربت منهم راحوا يطلقون النار فى

الفضاء • فوقفت السيارة ونزل منها ثلاث مدنيين وكانوا فى ثياب ممزقة وتعلو وجوههم نظرات الخوف والفزع •

قال وليد متسائلا :

– هل لديكم أى أخبار عن العدو ؟

قال أحدهم مرتجفا •

– دبابات العدو تحرق مدينة العريش وتقتل المدنيين فيها •

(٨)

تجمدت نظرات الهلع على وجوه الجنود عند سماعهم هذا النبأ وتسمرت أرجلهم فى الأرض وازداد توترهم عندما سمعوا صرخة جندى أعقبها ثلاث طلقات نارية عندما حاول سائق السيارة المدنية الفرار بسيارته فتقدم نحوه جندى وقال له وفى أعماقه بركان من الغضب ٠

ـ لعنة الله عليكم ، لعنة الله عليكم ٠

قال السائق محتجا :

ـ أنتم الملعونون لأنكم السبب فى ذلك ٠

فاندفع اليه الجندى وأطبق على رأسه بيديه وقال وهو مكفهر الوجه ٠

ـ لماذا تركتم مدينتكم يا جبناء ؟

رد أحد المدنيين ساخرا :

ـ تركناها لتدافعوا عنها ٠

هب الجندى واقفا أمام السيارة وصوب رشاشه الى عجلاتها وأخذ يضربها حتى تمزقت ثم قال والعرق يتصبب من وجهه ٠٠

ـ والآن اذهبوا حيثما تريدون ٠

فاسرع وليد الى الجندى ونزع منه رشاشـــه وقال والشرر يتطاير من عينيه :

ـ أغرب عن وجهى ·

واندفع جندى مهرولا داخل الموقع وطفق يصيح بأعلى صوته:

ـ العدو فى العريش ، اليهود على مشارف وحدتنا ·

فطلت الرءوس من الدشم فى قلق وارتعشت الكلمات فى الأفواه وتراخت الأيدى القابضـــة على السلاح · وانتفض المعسكر بكل من فيه يتلوى من هول المفاجأة ، فاندفع الرقيب فرحـــات نحو الجندى وجذبه بشدة من ملابسه وصرخ فى وجهه قائلا ·

ـ من اتاك بهذا النبأ الكريه ؟

أشار الجندى بأصبعه ناحية المدنين وقال لاهثا :

ـ هؤلاء ·

فاندفع الرقيب فرحات نحوهم مسرعا فرأى جمعا من الجنود تحيط بالمدنيين ويريدون الفتك بهـــم والنقيب يوسف يخلصهم من أيديهـــم بصعوبة · وتمـــكن القائد من فض الجموع وأمرهم بالانصراف الى مواقعهـــم وترك المدنيين فولوا الأدبـار مسرعين فى أصقاع الصحراء المترامية ·

قال الرقيب فرحات وقد حاق به الضيق :

ـ كنت أفضل احتجازهم ومعاقبتهم يا أفندم ·

رد النقيب يوسف فى التو ·

ـ لم ·· ؟

– لأنهم روجوا اشاعات خطيرة ٠

– انها الحرب يا فرحات وهؤلاء أفراد فقـــدوا صوابهم من هولهـا ٠

– لم يفقد آحدنا رشده حتى الآن ٠

– أمرهم يختلف عنا بكثير ٠

ثم ربت على كتف الرقيب فرحات وقال في نبرة حاسمة :

– علينا نحن أن نثبت في مواقعنا وهذا هو واجبنـــا الأول وبالطبع انت أول المستجيبين لذلك ٠ ومضى يتفقد مواقع الجنود ويشحذ هممهم الى القتال ويكذب لهم ما سمعوه ٠ فتوارى القلق من قلوب الجنود وعادت اليهم الطمأنينه ومضى كل جندى رابضا خلف سلاحه وكانت غارات العـــدو قد خفت حدتهـا وبقى دوى الانفجارات وقصف المدافع مستمرا وشرائط الدخان الأسود تغطى وجه السماء في أنحاء الصحراء الشاسعة ٠

قال حسين وهو يكابد القلق في أعماقه :

– الى متى سنظل هكذا ، لانعرف ما يدور من حولنا يا وليد٠ الا توجد وسيلة نعرف بها حقيقة الأشياء من حولنا ؟

– انقطعت عنا كل السبل ٠

– والعمل ٠٠٠ ؟

– الانتظار ٠

– انتظار يحمل معه الموت والدمار ٠

وتعلقت عينا وليد الى شريط طويل من الدخان ينفث سحابه الاسود على امتداد الشاطىء فهز رأسه وقال :

ـ الحرب تفعل أكثر من ذلك ·

ـ الحرب حركة واستمرار لاسكون وانتظار ·

ـ لا حركة دون أن نعرف ما هي خطواتنا والى أين نسير ·

قال حسين ساخرا :

ـ ولكن سكوتنا هذا سيجلب علينا الدمار ·

ـ نحن لم نستكين ، قاتلنـــا العدو بشـــجاعة عندما لاحقتنا طائراته دون انقطـــاع والآن ونحن ننتظر النزال من جديد وقطع حديثهما الرقيب فرحات صائحا ·

ـ قفوا أماكنكم ·· لا تتحركوا ·

تطلع وليد الى الشاطىء فرأى الرقيب فرحـــات قد أمســك بأربعة جنود فنهض وليد اليه مسرعا وسـمع أحدهم يقول بصوت متقطع :

ـ العدو احتل مواقعنا ·

وقال الثانى فى ارتياع :

ـ العدو قضى على كل من فى وحدتنـــا بدباباته البرمائية

وأضاف الثالث وهو مرتجف السرائر :

ـ وحول الموقع الى نار وهشيم ·

ومضى الرابع قائلا وقلبه يقطر رعبا :

ـ ومن بقى منا حيا عجنوا لحمه بالدبابات ·

فقال الرقيب فرحات وأمارات الدهشة تكسو وجهه :

ـ لا : ما تقولوه محض افتراء · أنتم الذين وليتم الأدبار
فوضع أحد الجنود الأربعة يده على جرح فى كتفه وقال وهو مخنوق الصوت :

ـ أنتم تجهلون ماكنا فيه ·

قال الرقيب فرحات ثائرا :

ـ كان يجب عليكم مقاومة العدو مهما كانت الظروف ·

قال الجندى والحزن يملأ وجهه :

ـ قاومناه حتى تفحمت جثثنا ·

فاندفع نحوه جندى من الموقع وتسائل مرتاعا ·

ـ تفحمت جثثكم ؟

قال الجندى وجسمه كله يرتجف ·

ـ هجمت علينا دبابات العدو البرمائية وأخذت تضرب مواقعنا ضربا مستمرا دون توقف فقاومناهم ببسالة حتى دمر موقعنـا كله وتحول الى نار وهشيم كل شىء فيه تفحم ولم يبق من الموقع سوانا · وكنت أثناء الضرب والدبابات تجوس الموقع فى دشمه بمفردى كل شىء من جولى تحول الى نار متلظية باللهب · وبعد انتهاء الغارات الوحشية خرجت من بطن الرمال ورائحـة البـارود تزهق أنفاسى وأخـذت أبحث فى خـوف عن رفاقى فرأيت جثثـا متفحمة بطونا مبقورة وأيدى مبتورة فانتابنى رعب قاتل · وأخيرا وجدت رفاقى هؤلاء يهيمون بين الجثث كالمجانين · وفجـأة عاود العـدو غاراته فانبطحنا أرضا وأخذنا نزحف ونحن محتمين خلف الكثبان الرملية العالية الممتدة على الشاطىء وبعد ان غادرنا الموقع رأينا سيارة من قواتنا فركبناها حتى مشارف العريش وهناك سمعنا بأن العدو يطوق

المدينة فتسللنا من سيارتنا وعودنا المسير على الشاطىء · وبعد ان أنهى الجندى حديثه تراخت أقدامه واهتزت سرائره ثم جلس على الرمال يلهث دون انقطاع · فالتفت جنود الوحدة من حولهم فى وجوم وامتلأت عيونهم بنظرات قلقة فزعة ثم التحمت الأجسام بالأجسام وتناطحت الرءوس بالرءوس وانتثرت كلمات الجنود وتعليقاتهم تقطر رعبا · فاندفع القائد اليهم مهرولا وزعق فيهم ونار الغضب تتأجج فى صدره ·

وقبل ان ينهى كلامه ترامت عن بعد همهمات وصرخات فالتفت القائد واشرأب برأسه · فرأى مدينة العريش :

تنفث دخانا أسود وتفرز من ثناياها كائنات بشرية تهيم شاردة كلاب تنبح وتسابق الريح والبهائم فى أعداد كبيرة تهيم شاردة يسبقها خوارها ·

ومجموعات المدنيين تهرول فى أمواج متتابعة · وأخذ الموكب الجنائزى يقترب وتتوالى معه أنات الفزع وصرخات الجزع · النساء مبعثرات الشعور مغبرات الوجوه أخذن يصرخن ويصحن والأطفال حفاه يبكون ويولولون والرجال يهيمون وامارات القلق تعلو وجوههم ·

كانت صور الذعر ترتسم على كل الوجوه فشاب يحمل على ظهره امرأة عجوز مبقورة البطن دمها ينزف بشدة ويسيل على وجهه ويغرق ملابسه · والمرأة تئن انات موجعة والشاب يصرخ ويصيح فى هستيرية :

– ماذا أفعل لك يا أماه ، ماذا أفعل لك يا أماه وامرأة تمسك بطفلين ممزقى الثياب وتقول لهما فى فزع ·

– أين اختكما سلوى ·· أين بنتى سلوى ·

ورجل تطفر الدموع من عينيه بغزارة ويقول فى قلق ·

ـ ماذا حدث لك يانفيســـة ·· ثم يصيح ويبكى وينطلق عائدا يسابق الريح الى العريش ·

اهتز الجنود فى مواقعهم وخرجوا من دشمهم ومواقعهم فزعين وانتشروا فوق الرمال اشتاتا متفرقة ·

قال جندى فى هستيرية :

ـ ذبحنا هكذا فى لمح البصر ·

ورد آخر فى أسى عميق :

ـ وفى يومنا الأول ·

فاندفع جندى طويل القامة أسمر الوجه من دشمته صائحا :

ـ لن نستسلم وسنموت فى مواقعنـــا ، هيـــا الى سلاحكم يارفاق · ووسط هذا الصخب المجنون الذى ينزف بالضياع فى كل شبر منه اعتلى النقيب يوسف تلا رمليا ·

وأخذ يصيح فى صوت مدوى :

ـ أيها الرفاق ·· أيهـــا الأخوة · يا أبنـاء مصر وياعدتها ويا رجالها الاشداء · انتظروا قليلا واستمعوا الى ما أقوله ·

(٩)

وقف النقيب يوسف بقامته المديدة يحـدق فى الجمـوع الغفيرة ثم استدار برأسه الى المدافع الرابضة على الشاطىء وقال وفى أعماقه ثورة جامحة :

– ما زال سـلاحنا فى أيدينـا وقدرتنا على القتـال ما زالت حاضرة . فلماذا نولى الفرار ؟ والى أين نسير ؟

وتنفس نفسا طويلا ومضى يقول والعرق يتصبب من وجهه :

– الصحراء من أمامنا مترامية ومرفأ الأمان بعيد عنا والأرض هنا ما زالت أرضنا أمانة فى أيدينا ومن العـار أن نفرط فيهـا فرد عليه مدنى عابس الوجه .

– العدو ملك زمام الموقف وهو فى الطريق للاجهاز علينا اذا بقينا هنا .

قال القائد معترضا :

– اذا كان الأمر كمـا تظن ورأيت الفرار بهـذه البساطة سيذبحنا العدو كالنعاج .

قال جندى متجهم الوجه :

– نحارب طائرات العدو ودباباته ببنادقنا ورشاشاتنا .

فاحتقن وجه القائد بالغضب وقال فى حسم :

ـ ليس الأمر كمـــا تعتقد ، نحن ســنحارب بكل ما فى أيدينا ٠

فار الدم فى عـروق الرقيب فرحات وقال وهــو يمـــوج بالثورة :

ـ ما يقوله قائدنا هو الحق فاذا أولينا الأدبار وتركنا سلاحنا خلفنا سيجهز العدو علينا ومن يسلم من يده سيموت جوعا وظما وخوفا ٠

وألقى وليد نظرات ثائرة متمردة على جموع المترددين وقال فى حماس :

ـ لن تلين عزيمتنا ٠ هذا هو قدرنا وسوف نواجهه بكل قوة وشجاعة ٠

وصاح حسين بعد أن لفظ من أعماقه كل امارات اليـأس والقنوط :

ـ الشهادة ونحن مع السلاح شرف لنا وفخر لأمتنا ٠

عم الهرج والمرج وارتفعت أصوات معارضة وأخرى مؤيدة واحتدم الموقف بين الجموع المحتشدة ٠ وبينما هم يتشاورون فى أمرهم اندفعت طائرات العدو فوقهم وأخذت تصول وتدور دون أن تلقى بشىء من قذائفها فاهتزت على أثرها أمواج البشر وتصببت الوجوه بالعرق وأفرزت الشفاه الزبد وتعـالت صيحات النسوة وارتفعت صرخات الأطفال ٠ فدوى صوت النقيب يوسف مرة ثانية وهو يفيض قوة وحسما :

ـ من يريد البقاء معنا فليثبت فى مكانه كالصخرة الشماء ومن يبغى المأوى الآمن الذى يقى نفســـه شر ويلات الشـــجاعه

والرجولة فليرحل عنا بعيدا وليسقط من حسابه ضميره الوطنى لانه بعد ذلك سيعيش مجردا منه ٠

تنهد تنهيدة طويلة ورفع رأســـه ورشق الجموع بنظرات غاضبة وقال بقلب جسور :

ـ بعد قليل سأطلق الرصاص على المترددين والمثبطين لهمم دون رحمة ٠

أطبق الصمت على الجميع ٠ ثم انسابت جماعات تبرح المكان وبقيت جماعات أخرى فى مكانها مترددة قلقة ٠

ونزل القائد من التل الرملى واضطحب معه ضباط وجنـود وحدته وأخذ يدور حول الجمع المتبقى ويختار منهم من يصلح من جنود الوحدات الأخرى ٠ وأمر الباقين بمبارحة المكان فورا ٠

★★★

استطاع قائد الوحدة أن يشكل فى مدة وجيزة موقعا جديدا قوامه مدفع ساحلى نقله من الشاطىء وأقامه بجانب الطريق المعبد ثم أقام على جانبيه مدفعى م٠ط وفى مجمـوعة الدشـم والخنادق المتناثرة انتشر الجنود ٠ هذا بالاضافة الى تشكيل مجموعات أخرى من حاملى مدافع البازوكا والقنابل اليدوية ٠ وبعد أن أتم القـائد تشكيل موقعه الجديد وقف وسط الجنود وقال بقلب يفيض بالفرحة وينتشى بالسرور :

ـ هذا موقعكم الجديد وسنعمل من خلاله ضد قوات العدو المغيرة ٠

وسكتت مليا ثم رفع رأسه وأضاف قائلا :

ـ المدفع الساحلى مهامه ضرب دبابات العدو المتقدمة ومدفعا

م٠ط لحماية موقعنا من غارات العدو رغم قلة ذخيرته الموجودة ٠ أما مجموعات البازوكا والقنابل اليدوية سيكون لهم مهمات ستعلن فى حينها ، هذا بالاضافة الى أفراد الرشاشات والبنادق المنتشرين فى الخنادق والدشم ٠

ثم أصدر القائد أوامره بالاستعداد وتقدم الى الموقع الساحلى مسرعا ومن حوله التف أفراد أطقم المدفع كل فى موقع تخصصه وخلع سترته وأمسك بالمنظار وأخذ يستطلع دبابات العدو من بعد وبعد أن حدد الهدف أصدر أوامره بوضع الاستعداد وانطلقت القذائف ٠ وكان يسبق كل دانه تكبيرات الجنود وصيحاتهم ونسى الجنود أنفسهم وبهرهم هدير المدفع وهو يمزق الفضاء بدانات اللهب واشرأبت الرؤوس من الدشم وراحت تحدق فى الأفق الدامى المتناثر باللهب ٠

قال وليد ووجهه يفيض سرورا :

ـ قائدنا المغوار ملحمة لنا ٠

فرد حسين قائلا :

ـ قتل اليأس والقنوط فينا ٠

وارتفع صوت الرقيب فرحات قائلا :

ـ سأموت الآن وأنا مرتاح الضمير ٠

ورنا حسين الى أمواج البحر وهى تجلد الشاطىء فقال معلقا :

ـ البحر أيضا يموج بالثورة ٠

اندفعت دانه رهيبة الصوت تشق صدر الفضاء وتناثر على

أثرها غبار كثيف ثم ارتفعت تكبيرات الجنود تسبح فى أجـــواء السماء ٠

ولم يبق على امتداد البصر سوى لهيب الموت يخرج بقوة من المدفع الهرقلى ويمزق الأفق ٠

واندفع الرقيب فرحات الى الجنود قائلا وهو يرفع المنظـار عاليا :

– ابشروا يا اخوة ، دبابات العدو تحترق ٠ مزقها مدفعنا الأسطورى ٠

ثمل الجنود بالفرحة وأسكرتهم حلاوة النصر وامتلأت عيونهم بالارادة والتصميم ٠

قال حسين منتشيا :

– ليس هناك مستحيل ٠

قال وليد وابتسامة عريضة تعلو وجنته :

– هناك ارادة تصنع المعجزات ، لقد رفض قائدنا المثـول للواقع وصنع من المدفع الساحلى سلاحا للبر ٠ انه لا يعرف العجز أبدا ٠ وأشار حسين بأصبعه ناحية القائد وقال :

– انظر العرق يتصبب من جسده كله ٠

فرمقه وليد بنظرة اعتزاز واكبار وقال منفعلا :

– انه يعيش الموقف بكل مشاعره ٠

– مصر ما زالت تلد رجالا أشداء ٠

– يولدون وقت الشدائد ٠

ـ ويصنعون المعجزات ٠

ـ لانها أرض الله والأنبياء ٠

وفجأة شق ازيز الطائرات الفضاء وحامت عن بعد طائرتان أخذتا تلقيا بمتفجراتهما بعيدة عن الموقع فصاح الرقيب فرحات :

ـ انهم يخشوننا ٠

ارتفعت حناجر الجنود صاخبة ٠ سـنقاتل الى أن ندفن فى الرمال مع مدافعنا وبنادقنا ٠

وارتقى القائد قاعدة المدفع وأخذ يقول والحماس يتفجر من عينيه :

ـ بارك الله فيكم يا أيها الرجال ويا جند مصر البررة ، الوطن يفخر بكم وبأمثالكم ٠

وهتف الجنود يصيحون بصوت جماعى سنقاتل حتى النهاية٠

ظلت الطائرات تغير على فترات متقطعة وفى كل مرة كانت تلقى بوابل من متفجراتها ولكنها لم تستطع اصابة أى هدف رغم قلة النار المندفعة من مدفعى م٠ط لقلة الذخيرة ٠

وكان الجنود أثناء احتدام الغارات يكبرون ويصيحون وظل القائد يعانق مدفعه فى حرارة أثنـاء القصف ، كأنه يعانق رفيق نضـاله وكان يصيح فى الجنـود بحـرارة بأن يواصلوا النزال والتراشق والضرب والقصف ، وكانت دانات المدفع المرتعش فى بطن الرمال وهو يشق الصحراء بقذائفه الرعدية ، وشظايا اللهب المتناثرة فى كل مكان ، وأقوسة النيران المتوهجة فى بطن السماء وهدير الجنود وهم يكبرون ٠ كان كل ذلك أشبه بلحن أسطورى

يعزف سيمفونية البطولة الخالدة فى ساحة الحب الأبدى . وكانت الفرحة تملأ وجه الرقيب فرحات والابتسامة المضيئة ترتسم على وجنته . كان يشعر فى اعتزاز بأنه قد أدى جزءا من الواجب لوطنه ومن قبل كانت وقفة مدفعه هادئا ساكنا على الشاطىء تثير فى نفسه حزنا عميقا فقد كان يريد لمدفعه أن يهدر وأن يصارع البحر ويجلد أمواجه ويسحق أعداءه وهم يقدمون بأساطيلهم أما وليد فكان على رشاشه رابضا كالأسد فى العرين وينتظر بفارغ الصبر ساعة اللقاء والنزال الدموى وحسين يجواره يرنو الى الأفق المخضب باللهب فينتشى قلبه بالسرور . كان كل الجنود فى مواقعهم تغمرهم الفرحة لانهم استطاعوا بارادتهم وصمودهم أن يدمروا عددا من دبابات العدو .

نظر القائد فى المنظار فرأى حشودا من دبابات العدو تتقدم نحو موقعهم فى اتجاهات متعددة واستدار برأسه يمنة ويسرة وكانت الشمس تأفل نحو الأفق وخيوط السماء بدأت تنسج أرديتها الرمادية على وجه الأفق . ثم تنفس نفسا طويلا وقال بهدوء وبأعصاب ثابتة :

ــ العدو يقترب من موقعنا والليل يهبط بظلمته والموقف يقتضى منا سرعة التصرف .

وسكت لحظة ومضى قائلا بنفس الهدوء والثبات :

ــ لا شك أن مدافعنا الساحلية الآن فقدت جدواها والأمر يقتضى تدميرها لكى لا يغتنمها العدو أما نحن كقوة دفاع نستخدم تشكيلا آخر ليقينا من هجوم العدو بأسلحته المهاجمة .

ثم أصدر القائد أوامره بنسف المدافع الساحلية الثلاث

وتغيير الموقع الى موقع آخر خلف الكثبان الرملية وأشجار النخيل الممتدة على مسافة كبيرة من الشاطىء ٠

وخرج الرقيب فرحات ووليد وحسين ومعهم أدوات النسف كانت قلوبهم تحترق بالأسى وهـم يشـاهدون المدافع الشامخة ولا يتصورون انهم سيدمروها بأيديهم ٠ كان الرقيب فرحات يشد شعر رأسه ويقول وعيناه تفيضان بالعبرات :

ـ الوداع أيها الرفقاء الأحبـاء أن حبى لكم لا يباريه حب والآن وأنا أودع أشقائى وأحبائى أشعر بانى أفقد جزءا كبيرا من قلبى ٠

ثم أجهش بالبكاء فجذبه وليد من يده وقال بصوت مخنوق:

ـ اسرع العدو يقترب ٠

وقف الرقيب فرحات أمـام المدفع الأول وبجانبه وليـد وحسين وطفقت عيناه بالدموع وهو يضع أدوات النسف فى المدفع ثم زعق عاليـا بكل جوارحه وانفجر المدفع وتناثرت بقـاياه على الشـاطىء وفوق الأمواج وابتلع البحر بقايا منه ٠ وتفجر المدفع الثانى وغاص جزء من ماسورته فى بطن الرمال وترك فوقه خيوطا من الدخان المشبع برائحة البارود ٠

واندفع الى المدفع الثالث ووقف أمامه طويلا يحدق فيه ثم يربت على ماسورته ويقول لنفسه مخاطبا (بارك الله فيك ياصانع المعجزة ويابن البطولة ويا رمز الصمود) ثم وضع بيد مرتعشة أدوات النسف٠وأخذ يتباعد رويدا ٠٠٠ رويدا ٠٠٠ ودوى الانفجار وارتقت شظاياه فى الفضاء ثم سقطت متناثرة وغطت مساحات كبيرة من الأرض التى دارت عليها معارك القصف الكبير ٠

واندفع الرفاق الثلاثة الى الموقع الجديد الذى تم تشكيله -
وكانت قوة تشكيلاته من مدافع البازوكا ومجموعة أفراد للرشاشات
ومكانهم حـول الموقع ٠ ثم قوة انتحارية للتصدى ولتنفيذ بعض
المهام فى ظروف معينة ٠

وأخذ القائد يتفقد الموقع الجديد وكانت الظلمة قد انسدلت
وطراوة الليل أخـذت تهب من الشاطىء ودمدمات البحر وانات
أمواجه تترامى فى المكان كله ٠

انسدلت وجنة الليل وهبت نسماته المخضلة برذاذ الفجر وأمسى الجنود كالأشباح فى مواقعهم وفى تحركاتهم وكانت قطع السلاح المحدود كقطع الليل الملثم بالظلمة ٠

فقال وليد وهو يرنو الى جنبات المعسكر :

ـ حفيف أشجار النخيل وهى تتمايل مع نسمات الليل الطرية تذكرنى بحكايات طويلة حكايات قريتى العذراء وناعورتها القديمة وفلاحيها السمر وهم ينثرون فى أرضها حبات قلوبهم ٠

ضحك زهانه ملء شـــدقيه وراح يتثاءب ويملأ رئتيه من نسمات البحر المخضلة بالندى ويقول مسرورا :

ـ وأغنيات الأمواج وهى تتلاطم فى أعماق البحر تذكرنى بليالى فضية كنت أخرج فيها للصيد مع رفاقى الصيادين ونرمى شباكنا وكأننا نلقى معها أحلامنا وآمالنا فيخرج لنا الرزق من بطن الماء فنفرح وننتشى ويصيح فينا كبيرنا : ليلة رزقها واسع مثل ليالى صباى وأنا فى زهرة شبابى ويطول بنا الحديث ويتنوع الى أن نعود الى دورنا مع رحيل البدر وعطر الليلة ما زال يعبق فى صدورنا بأريج طيب ٠

فتنهد حسين تنهيدة طويلة وقال والحزن يملأ عينيه :

ـ أما أنا فذكرياتى مرة : لا أرى فيها سوى الظلمة والألم

والغربة · شوكها دائما فى طريقى أينما كنت وحيثما سرت ·
قطع حديث الرفاق الثلاثة وهم يتفقدون الموقع من ناحية البحر
نداء الرقيب فرحات وهو يدعوهم الى السلاح فهرولوا مسرعين الى
دشمهم وكان جندى استطلاع الموقع قد تمكن من رصـــد حركات
العـــدو وهو يتقدم بدباباته نحوهم فأخذ كل جنـــدى وضع
الاستعداد · وبعد فترة وجيزة ترامت الى آذانهم صلصلة جنازير
الدبابات الحـديدية وهى تهرس الرمال ثم اقتربت الدبابات من
الموقع وتوقفت برهة ثم مضت تتحرك يمنة ويسرة الى أن فرضت
حصارا محكما حول الموقع من الأمام ومن الميمنة والميسرة ولم يبق
ســـوى البحر من الخلف يزمجر ويدمدم وتتـلاطم أمواجه عالية
مرتفعة ·

بدأت ضربات العـدو نصب نيرانها على الموقع كله وبدأت
بطلقات خفيفة ثم أعقب ذلك دانات المدافع المتفجرة باللهب وكانت
الدانه تحرق كل ما يواجهها فتتهاوى أشجار النخيل مشتعلة ·
وظل القائد طوال ذلك يترقب مدى قوة نيران العدو وظروفه حول
المعسكر وبعد ذلك أصدر أوامره بالرد على النيران وذلك بعد أن
خبر قوة نيران العدو ومصدر جبهاته ، وقد كان ذلك على اثر دبابة
أخذت تشق طريقها الى قلب الموقع · وفى التو أصدر القائد أوامره
لحاملى مدافع البـازوكا بضرب الدبابة المتقـدمة فانهالت قذائف
البازوكا نحو جنزير الدبابة الى أن توقفت عن السير واهتز جسم
الدبابة الحديدى مترنحا بين جنبيه واندفع على اثر ذلك جنديان
بالقنابل اليدوية وقذفا برج الدبابة فانفجرت من الداخل وارتفعت
ألسنة النيران ثم ألقى ثلاثة جنود اسرائيليين بأنفسهم من البرج
وهم ينزفون بالدماء وأخذوا يزحفون على الرمال فانقض عليهما
وليد وحسين برشاشيهما وأخذا يصبان عليهم سيلا من الطلقات
الى أن تمزقت أجسامهم الحديدية ·

كبر الجنود من داخل مواقعهم وملأت الفرحة قلوبهم وانتشى الرقيب فرحات مسرورا وترنح مبهـورا لما رآه ٠ وتعانق وليـد وحسـين تحت لهيب النار عناقا حارا وترددت صيحات الاعجـاب والتقدير من الجنود وأخذت تحيى حسين ووليد ٠

وقال الرقيب فرحات لنفسه مخاطبا (سأخبر أبناء قريتى اننا بالسلاح القليل حققنا الكثير) دوى قصف المدافع من جديد وانهمر سيل اللهب يحرق ظلمة الليل ويحوله نهارا ساطعا وأخذت تتساقط أشجار النخيل فى أنحاء المعسكر كله وهى مشتعلة ٠

جثى النقيب يوسف على ركبتيه وأخذ يترقب اتجاهات نيران العـدو ثم أصدر أوامره بتشكيل قوة انتحارية مسلحة بمدافع البازوكا والقنابل اليدوية وذلك لفك الحصار المحكم الحلقات حـول المعسكر وتشكلت المجموعة بقيادة الرقيب فرحات وتقدم الرقيب فرحات المجموعة يجاوره وليد وأخذوا يزحفون فوق الرمال الى أن قاربوا دبابات العدو فراحو يمطرون الدبابة بسيل من القنابل اليدوية فى اتجـاهات متفرقة ، فتعثرت الدبابات وتشتتت فى اتجاهات غير منتظمة فانقض أفراد مدافع البازوكا على جنازيرها وأخذوا يرشقونها بنيران مكثفة ٠

وأدى ذلك الى تفرق الدبابات ، المحاصرة كما ارتفعت من أبراجها ألسنة النيران فولت مدبرة ٠ وشاعت رائحة البارود فى كل مكان وتعالب تكبيرات الجنود تنشد لحن السماء رائحة البارود فى كل مكان وفى أصقاع الصحراء المترامية ٠

اهتز الحصار الاسرائيلى وتعثرت الدبابات فى احكام حصارها وانبثقت شرائط الدخان الأسـود ٠ فملأت الرغبـة الجامحة فى القتال قلوب المقاتلين المصريين ومطاردة العدو بدباباته أينما كانوا ٠ غير ان نداءات النقيب يوسف هدأت من جسارتهم ٠

فأسرع نحوهم وألقى عليهم نظرات كلها حب واعجاب وقال بصوت يكن فى كل ثناياه دلائل الثقة :

– مطاردتكم للعدو بهـــذا الشكل تعد مخاطرة غير مأمونة العواقب لان العدو سينظم صفوفه وسيعيد الكرة من جديد لانه خبر موقعنا ٠ وعرف مدى ما فيه ونقصـــه من الســـلاح الثقيل

فرد جندى جسور القلب حاسم النظرات :

– سنقضى عليهم قبل أن يمســـونا ٠ وأضـــاف الرقيب فرحات :

– قلبى يهفو للشهادة ٠

– نحن نملك القــــدرة على منازلتهم مهما كانت قوتهم ٠ فابتسم النقيب يوسف ولمعت عيناه بالفرحة وقال :

– ثقتنا بكم كبيرة ولكن علينـــا أن نترقب تصرفات العــدو ومناوراته لنعرف أساليب قتاله بعد هذه الجولة ٠ وتنفس نفســا طويلا وقال :

– كل منكم يلزم موقعه الآن فالعــــدو سيعاود الكرة من جديد ٠

وقبل أن ينهى القائد كلامه دوت من جديد قذائف العدو ٠

★★★

بقى الجنـــود فى مواقعهم تحدوهم رغبة جامحة فى القتـــال وكانت خطط القائد المحكمة وشجاعة الرقيب فرحات ووليد وبقية الجنود قد فاقت كل تصور وتؤكد بسالة الموقع وبطولة جنوده حتى النهاية ونسى الجنود وسط النار والموت والدم كل غرائز الخـــوف

واليأس والعجز ورغم ان العدو عاود حصاره من جديد بعددآخر من الدبابات بيد ان ارادة الجنود الحديدية كانت تحول دون تقدم أى دبابة للعدو خطوة واحدة للأمام ٠

وقامت مجموعات الجنود الانتحارية بأعمال خارقة للعادة ٠

وفاق الرقيب فرحات بشجاعته وجرأته جميع الجنود فلم يبال بالرضوض التى أصيب بها جسمه كله ٠ ولا بالارهاق الذى انتابه نتيجة لمجهوداته المضنية التى قام بها هو وأفراد مجموعته ٠ وكانت عيناه متألقتين بنور ساطع وقلبه ينتشى بفرحة غامرة ٠ كل الأشياء من حوله كانت فى عينه قضية اللامع ذهبية الوهج وكان يشعر وهو يحمل مدفعه بأنه يحمل قيثارا ألحانها البارود المتفجر فى كل مكان . وكان يكبر ويصيح فرحا وهو يتفقد مهامه بين جسور اللهب ٠

★★★

ظلت المعارك محتدمة الأوار الى أن بدأت الذخيرة على النفاذ وعاود العدو احكام حصاره بعدد آخر من الدبابات والمدرعات ٠ ولم يبق فى الأفق الليلى سوى اللهب المتفجر فى كل صقع منه ٠ مال القائد على اذن الرقيب فرحات هامسا :

ـ نريد فتح ثغرة فى حصار العدو لان الذخيرة الباقية ٠ لا تكفى الا فترة وجيزة ٠

رد الرقيب فرحات على الفور :

ـ سأفتح الثغرة بنفسى ٠

ـ كيف ٠٠٠ ؟

أشار الرقيب فرحات بأصبعه ناحية ميمنة الموقع وقال فى ثقة :

– هـذا أضعف جانب للعدو وفى نفس الوقت يعتبر هـذا الجانب هو المنفذ الوحيد للطريق نحو الساحل ٠

سطع نور ممزوج بالفرحة فى عينى القائد فتقدم نحوه وربت على كتفه وقال مبتسما :

– أعلم ذلك ، ولكن كيف يتم هذا العمل ؟

أخذ يضرب الرقيب فرحات بيده على مدفع البازوكا ويقول فى حسـم :

– سأدمر بمدفعى هـذا دبابات العدو المحاصرة على شرط أن يغطى تقدمى بالنيران ٠

حملق القائد فى وجه الرقيب فرحات فرآه يسـطع بنـور غريب وجسده كله ينتشى بالفرحة ودنا منه وقال هامسا :

– قائد محنك وجندى شجاع يا فرحات ؟

ثم سكت برهة ورفع رأسه اليه وتعلقت عيناه بوجهه الذى ما زال يفيض بالنور فأضاف قائلا :

– ولكننى أشفق عليك من كثرة التضحيات والبطولات التى قمت بها ٠ فضرب الرقيب فرحات بقبضة يده على صدره وقال ونور الثقة ينفذ من عينيه :

– تضحيات للنهاية من أجل مصر ومن أجل اخوتى الجنود ٠ فضغط القائد بيده على يد الرقيب فرحات وقال بحرارة :

– نفذ مهامك على بركة الله ٠٠٠ يا فرحات ٠

ملأ الرقيب فرحات مدفعه بالذخيرة وحمل معه عددا من القنابل اليدوية ثم ألقى نظـرة طويلة على رفاقه الجنود فى الموقع وانطلق يتلوى فى مرونة وخفة فوق الرمال وكان يشده قبس من نور غريب وتضيء عينيه ثقة مطلقة لا حدود لها · وظل يزحف فى حرص شديد وحذر ويرفع رأسه بين الفينة والأخرى ليرى الأشياء من حوله الى أن ارتقى كثبا رمليا فتسلقه بخفة وحـذر وأطل برأسـه فرأى الدبابات الاسرائيلية عن قرب يلفها الليل بردائه القاتم وذبال نور خافت تصدر من موقع بعيد وتكشف بعض جوانب الحصـار فامتلأ صدره بشذى طيب واعتلت وجهه ابتسامة مشرقة وتنفس نفسـا طويلا وأخذ يتلفت يمنة ويسرة ثم فوجيء بطلقات مدوية تمر من فوق رأسه فدفن وجهه فى الرمال وبعد أن توقفت أطل برأسـه يتقصى مصدر الطلقات وراح يمسح ذرات الرمال من وجهه وأذنيه وعنقـه وارتعشت على شفتيه ابتسـامة طويلة وتنفس بعمق وقال لنفسه بارتياح (الحمد لله خشيت الموت قبل فك الحصار · وعليك الآن يا فرحات أن تحذر طلقات العدو الطائشة) ·

ورفع يده ببطء واخذ يتحسس جيبه واخرج منه مصحفا وصورة ملفوفان فى منديل ثم فتح المنديل وأمسك بالصورة فبدت له الصورة فى ظلمة الليل مضيئة متألقة فأخذ يحدق فيها فارتعشت يداه واخضلت عيناه بالعبرات وقبل الصورة ووضع يده فى هدوء على المصحف وقال لنفسه فى ارتياح (هذا هو هدانا الكبير وقت الشدائد) ثم لف المصحف والصورة فى المنديل ووضعهما برفق داخل جيب سترته وانطلق تهـزه مشاعر جامحة الى أن اقترب من دبابات العدو فتوارى خلف كثب رملى ودقق النظر فى هدفه فرأى دبابة ملفوفة بجسمها الحديدى فى الظلام تسد جانبا كبيرا من ميمنة الموقع فصوب اليها مدفعه وانهال عليها بمدفعه حتى توقفت عن الحركة واهتز جسم الدبابة الحديدى وقذف جنودها بأنفسهم على

الرمال فأطلق عليهم فوحات النار فى سرعة وخفة عظيمتين . وفجأة شعر بقوس نارى يتلظى فى كتفه فأمسك بيده مصدره وراح يزحف على الرمال والدماء تنزف منه بغزارة وتغرق ملابسه وتبلل ذرات الرمال من تحته وامتد سيل من النيران فوقه ينثر ذرات اللهب .
وظل الرقيب فرحات يزحف الى أن دنا من الدبابة الأخرى التى أخذت تتحرك وقذف برجها بقنبلة فارتفعت منها ألسنة النار وشرائط الدخان وازداد جرح الرقيب فرحات اتساعا وتصبب الدماء منه بقعا حمراء قاتمة وبصعوبة أخرج الرقيب فرحات مسدسه المضىء الطلقات وأطلق ثلاث طلقات اشارة لجنوده لنجاح العملية .
وتنفس نفسا طويلا وهبت عليه نسمات هادئة خضلة ومد يده الى جيب سترته وأخذ يتحسس ما بداخلها صورة ابنه ومصحفه ثم أخرجهما وأخذ يقبلهما قبلات مرتعشة ونظر الى السماء وقبض بيده على المصحف والصورة ووضعهما داخل سترته بيد مرتعشة ثم علت وجهه المخضل بالدماء ابتسامة عريضة الى أن اسلم الروح فى لحظة حب ابدى .

اهتز الموقع كله بمن فيــه ، فقد بكى الــكل شباب الرقيب فرحات النضر ورجولته الفذة ، وقد كان الرقيب فرحات فى نظرهم مثلا للجندية المصرية الفريدة فى نوعها · كان متعدد المزايا والسمات فلم تخمد عزيمته ولم تلن عريكته أثناء المعارك الضارية وكان فى أشد حالات الظلمة يشحذ الهمم وكان السباق فى كل شىء · ولما بلغ الحزن مداه وحاق بالجميع الألم واليأس اندفع القــائد مسرعا وسط الجنود وقال وهو يغالب العبرات فى عينيه :

ـ ثاووه الثرى واقرأوا الفاتحة على روحه الطاهرة ·

فتقدم جمع من الجنود نحوه كل فرد يريد أن يكون له الشرف فى ذلك وسبقهم القائد وبصحبته وليد . وحفروا له حفرة بجوار تل رملى ثم دفنوه ووضعوا الخوذة على مدفنه ·

وكانت أقسى لحظات العذاب لدى الجنود هى افتراقهم جماعات من حــول مدفنه ، كانوا يشعرون انهم يفتقدون حبــات قلوبهم · وكانت نيران العدو ما زالت تصب جمرات لهيبها ، وانات البحر من الخلف تجلد الشاطىء بعنف وتزمجر لجته بنواح صاخب ·

وأخذ الجنود ينسحبون فى هدوء وحذر وكان القائد يشرف بنفسه على عمليــات الانسحاب فكان يدور ويحوم حــول المعسكر ويجنب بعض الجنــود مزالق الوقوع فى الخطر ويوجــه آخرين الى الطريق المضمون العواقب كانت همته رغم العناء الشديد البادى على

وجهه ما زالت تحتفظ بقدر كبير من النشاط والحيوية · وفى أطراف المعسكر عثر على وليد وحسين يستعدان للرحيل وعنـدما أمرهما بسرعة الرحيل تقدم منه وليد وقال له :

ـ لم يعد فى الموقع أحد غيرنا يا أفندم ·

فالتفت اليه القائد وقال على عجل :

ـ سأتأكد بنفسى ·

وتركهما وقفز خلف تل رملى وأخذ يدور من حوله ثم اتجه ناحية البحر وارتقى ربوة عالية وأخذ يمعن النظر فى أطراف المعسكر كله وبعد ذلك اتجه الى وليد وحسين وعلى وجهه علامات الارتياح وقال فرحا :

ـ الآن تأكدت ان الكل قد غادر هذا المكان ·

وفجأة انهمرت من فوقهم شظايا اللهب فاتسعت عينا القائد وقال فى حسم :

ـ انسحبا الآن سريعا ·

أجاب وليد :

ـ وانت يا أفندم ·

ـ كل فرد ينسحب بطريقته الخاصة ·

فرد حسين :

ـ لن نترك هذا المكان حتى تأتى معنا ·

فقاطعه القائد قائلا فى نبرة جادة :

ـ اذهبا سريعا ·

ثم انفجر المكان من جديد بسيل من القذائف فزحف وليد وحسين فــوق الرمال وكانت الشظايا تتناثر من حولهما فى كل مكان ومضيا يزحفان فوق الرمال حتى عبرا المناطـــق الخطرة ٠ ثم قفزا خلف الكثبان الممتدة على الشاطىء ٠

وألقى وليد نظـرة سريعة الى الوحـــدة وقال والهواجس تساوره :

ـ لا أثر لوجود القائد ٠

أجاب حسين وهو شارد اللب :

ـ ننتظره ؟

ـ ما جدوى ذلك ٠

ـ قلبى لا يطاوعنى بمغادرة المكان دونه ٠

اطرق وليد مليــا . ثم رفع رأســه واتسعت حدقتا عينيه وقال :

ـ سيغادر المكان بمهارته المعتادة ٠

وألقى نظرة على الموقع وقال وكلماته تحترق بين شـفتيه :

ـ هيا بنا ٠

ومضيا يتسلقان جدر التلال المترامية وأخذ البحر يقـــذف برذاذه وجهيهما طول الوقت ٠

وبعد أن عبرا الاثنان جســور الرمال الممتدة تسلقا ربوة عالية وجلسا ليستريحا .

قال حسين وهو يلهث :

ـ لقد هدنى التعب ٠

صمت وليد قليلا ثم قال فى هدوء :

ـ ما زلنا فى أول خطوات المسيرة ٠

نظر اليه حسين طويلا وقال والكلمات ترتعش فى فمه :

ـ أى مسيرة تعنى ؟ تعتقد اننا سنصل الى ديارنا ؟

حدق حسين الى الظلمة المطبقة من كل جانب وقال فى أسى :

ـ لا أمل ٠

مست رعدة شديدة كل أوصال وليد فقال متبرما : لماذا التشاؤم ؟

قال حسين وهو يذرف الدمع :

ـ لماذا أبغى الديار ؟ وأنا غريب عنها ٠

دنا منه وليد وقال مواسيا :

ـ الحياة ليست قاتمة كما تتصور يا حسين ٠

قال حسين متأثرا :

ـ لا أمل ٠٠ لا أمل ٠

ربت وليد على كتفه قائلا :

ـ عندما نعود بسلامة الله الى ديارنا سنعيش معا فى رفقة واحدة ٠

نظر حسين اليه طويلا ثم هز رأسه ساخرا واسترسل فى شرود طويل ٠

رنا وليد الى السماء وبهره نجم يزهو فى ظلمة الليل فقال متأثرا :

ـ انظر الى هذا النجم يا حسين انه فى السماء مثل الرقيب فرحات بيننا ٠

قطع كلامه حسين وقال وعيناه غارقتين فى الدموع :

ـ بعد قليل سيرحل كما رحل الرقيب فرحات ٠

فرمقه وليد بعينيه وقال منفعلا :

ـ يجب علينـا أن نفخر به وأن نجعـل من ذكراه نبراسا يضىء لنا الطريق لان بطولته ستظل فى قلوبنا أنشودة نتغنى بها مدى الأجيال ٠

هز حسين رأسه وقال فى سخرية :

ـ العبرة بالنتيجة ، الحرب خسرناها والأمل فقدناه ٠ ثم ازدرد رضابه بصعوبة وقال منفعلا :

ـ هزمنا فى أيام معـــدودة وذبحـونا فى قلب الصحراء وجردونا من كل شيء ٠ وظل يتكلم ويتمتم بكلمـات غير مفهومة حتى اختنقت الكلمات فى حلقه وتندت عينـاه بالعبرات فجلس مفترشا الرمال ودفن رأسه بين فخذيه ولاذ بالصمت ٠

نزلت كلمات حسين كالمطارق تدق رأس وليد ٠ قال وليد لنفسه مخاطبا : هزمنا فى مدة وجيزة ماذا ستقول لاهـل قريتك يا وليد ؟ أتقول لهم انك أتيت تحمل معك هزيمة مرة كالحة !!

فسرت قشعريرة حادة فى كل سرائره عنـدما تذكر وداد وكلماته لها قبل أن يرحل عن النصر والبطولة وأمانيه لها باحياء

عرس كبير بعد عودته الى القرية حاملا أكاليل النصر ، حملق وليد الى وجنة الليل المترامية ثم استدار براسه الى أمواج البحر وهى تشكل تلالا عالية متفجرة بالصخب فهب واقفا من مكانه وأخذ يدور حول حسين بعصبية فحدجه حسين بنظرة خاطفة وقال متسائلا :

ـ ماذا دهاك يا وليد ؟

قال حسين فى ضيق :

ـ أكاد أختنق ٠٠ دمدمة الأمواج تنفذ الى صدرى كطعنات السكين ٠ فنهض حسين واقفا ودنا منه وقال والحسرة تعلو وجهه :

كنت من قبل أكثر منى ثباتا وصبرا وصلابة ٠ ماذا حدث ؟

أجاب وليد منفعلا :

ـ حصاد أيامنا حصاد دامى رهيب ٠

فقال حسين وهويتأوه :

ـ وفجيعتنا فيها فجيعة كبرى لقد فقدنا كل شيء ٠

فانتفض جسم وليد ودار حول حسين وقال والدموع تتساقط من عينيه :

ـ هناك أمل ٠٠ بقية أمل ٠

هز حسين يده فى الفضاء وقال متشنجا :

ـ بل قل هزيمة وتشتت وانهيار ٠ فقاطعه وليد محتجا :

ـ لا تتشائم بهذه الصورة القاتمة ٠ فقال حسين : انه الواقع المر ويجب أن نعترف به ٠

قال وليد والحيرة ترتعش على عينيه :

ـ اننا لم نصل الى الهزيمة المطلقة ٠

ـ ألم تر آلاف الجنود وهم يهيمون على وجوههم ـ ألم تفجع بآلاف الجثث المذبوحة والمبقورة والمواقع المتهاوية والمدينة المحروقة ٠

فقال وليد فى غضب :

ـ انها الحرب ويجب علينا احتمالها بكل أهوالها ٠

فرمقه حسين بنظرات قلقة جذعة ثم ألقى بنفسه على الرمال وقال بصوت ضعيف واهن :

ـ دعنى لهمومى يا وليد ٠

★★★

كانت دبابات العدو ومدرعاته ما زالت تجوس الرمال وتقصف بنيرانها بين الحين والحين فتتناثر شظاياها على الشاطىء ٠

فجذب وليد حسين من ملابسه وقال فى عجل :

ـ هيا بنا سريعا ، العدو سيصيبنا بنيرانه ٠ وسارا محتمين خلف الكثبان الرملية الممتدة على الشاطىء وكان البحر هائجا وتلاطم أمواجه يشبه طبول الموت والليل كان فيه رهبة قاتلة والحرائق عن بعد تحرق وجنته ٠

وفجأة سمع وليد طلقة قرب أذنيه أعقبها صراخ حاد ثم رأى حسين يهوى على الأرض ويتلوى ويئن فجثى اليه وأمسك بذراعيه وأسنده الى صدره وظل حسين يصرخ صراخا شديدا والدماء

تتساقط بغزارة من جرح غائر فى كتفه ثم سقط من بين يديه على الأرض فحملق وليد فى عينيه فوجدهما شاردتين وكان يئن انات مبرحة ويلفظ باسم أمه وأبيه وحبيبته ويقول والكلمات تتلوى بين شفتيه سأقابلهم هناك ... هناك ثم سقط على الأرض وأسلم الروح .

سرت قشعريرة حادة فى سرائره وهو يرى حسين جثة هامدة وأفزعه رؤية الدماء الساخنة وهى تغرق جسمه وتتساقط على الرمال فأصابته حالة من الهستيريا فجرى ناحية البحر وألقى بنفسه فيه وكادت الأمواج تشده الى الداخل فخرج منه سريعا الى الشاطىء ، وكانت رائحة غريبة تزكم أنفه وتصيبه بالغثيان والدوار وأفزعه زئير البحر وغربة الليل ورفيقه الذى رحل ، كان كالضال الذى فقد كل أمل فى الحياة ، وعلى الشاطىء ألقى بجسده على الرمال وهو يئن انات مبرحة ، ثم قال بصعوبة ودار بعينيه يمنة ويسرة فاصطدمت عيناه برؤية جثة حسين ممدودة على الرمال فصرخ صرخة مدوية وانطلق مهرولا كالمجنون .

وعلى مرمى البصر رأى أشباحا تهيم فى الظلام فى خفة متناهية ثم سمع نداءا حادا يأمره بالوقوف والقاء السلاح الى الأرض فألقى وليد برشاشه وفى التو التفت من حوله ثلة من الجنود تتكلم العربية .

قال وليد فى فزع :

ـ أنا مصرى .

تجمعت من حوله مجموعة من الجنود واندفع أحدهم اليه وأخذ يعانقه ويقول وهو يجهش بالبكاء :

ـ وأخيرا التقينا يا وليد .

افتر ثغر وليد عن ابتسامة عريضة وقال وهو يلهث:

ـ لا أكاد أصدق انى أرى زهانه أمامى ٠

ثم تعانقا مرة ثانية عناقا حارا ٠

وبقى فهمى يحوم حول الجنـود وعلى وجهه علامات الارتياع والخوف :

فحدق وليد فى وجهه وقال متبرما :

ـ ماذا أصابك ؟

قال زهانه :

ـ حالته غير طبيعية منذ أن تركنا الموقع ٠

فدنا منه وليد وقال :

ـ كيف حالك ؟

تفرسـه فهمى بعينين قلقتين وتمتم بكلمات غير واضحة ثم صرخ صرخة مدوية وراح يدور حول الجنود ويقول فى هستيرية :

ـ قتلونا ، ذبحونا ٠

فانتفض جندى فى مكانه واندفع اليه وقال فى غضب :

ـ اذا عدت الى ذلك سأقتلك برشاشى ٠

بصق فهمى فى وجه الجندى فرفع الجندى رشاشه بعصبية الى وجهه وقال فى حدة :

ـ سأقتلك ٠

فاندفع وليد اليه ورفع الرشاش عن وجهه ٠

لفظ فهمى نظراته بصعوبة ثم جلس القرفصاء على الرمال ووضع رأسه بين كفيه وسهم فى شرود طويل ٠

رنا زهانه الى الأفق المتفجر بالشروق وبهر قرص الشمس وهو يسبح فى زرقة البحر المترامية فتذكر صباه وشبابه وليالى الصيد الخضراء وشراع زورقه الابيض فنهض قائما وذهب الى الشــاطىء وأخذ يجوس الرمال وشعر بقشعريرة تسرى فى أوصاله عنــدما طافت فى مخيلته أطياف زوجته وطفليه وهاجته ذكراهم وعادت تطرق أذنيه كلمات زوجته وهى تودعه وتقول له « لاتغب عنا كثيرا يازهانه نحن ننتظرك على احر من الجمر ، وانســـابت فى اغواره أحزان موجعه فقال لنفسه مخاطبا « ماذا يفعلون فى غيبتك يازهانه أنت لم تغب عنهم مثل هذه الغيبه الطويلة ، وتلاحقت ضربات فؤاده عندما تذكر أطياف أمه العجوز وهى تحتضنه بحرقه وتقـــول له والدموع تترقرق فى عينيه « لاتجعل قلبى يحترق عليك يازهانه ، لا تغب عنى ياولدى ، ليس لى فى الدنيا سواك » فهدرت الذكريات فى أعماقه وتلظى لهيبها بالألم ٠ وتشدت ــ عيناه بالدموع وتغيب الأفقمن حوله وشحبت الزرقه وتدافعت الى أذنيه ضربات الأمواج نواحا حزينا فجلس زهانه على تل رملى ووضـــع رأســه بين يديه وغرق فى حزن عميق ولم يصــــح من غفوته الا على يد تجذبه من ملابسه بعنف فهب واقفا من مكانه واصطدمت عيناه بقامة وليد الشامخه وبنظرات عينيه الحاده فقال له وليد بصرامه ٠

ــ جئت يازهانه ؟ كيف تجلس هكذا ؟

فتح زهانه عينيه مندهشــا وحملق فى وجه وليـــد طويلا ثم قال :

ــ وأى غرابه فى ذلك ؟

ــ أنت فى مرمى عيون العدو ٠ هز زمانه كتفه وابتســـم ابتسامه مغتضبه وقال :

ــ نحن فى مرمى العدو من كل مكان ٠

هز ذراعه فى الفضاء وقال غاضبا ٠

ــ ولكن للحذر ضرورة ٠ ثم سحبه وليد من يده وقال :

ــ هيا بنا يازهانه الرفاق يزمعون الرحيل ٠ واتجها الى جماعات الجنود التى أخذت تتحرك بتعب نحو الشاطىء اهتز صدر زهانه وارتجفت شفتاه وشعر بشىء يتقلص فى أعماقه ثم قال :

ــ الى أى هدف نتجه ؟ اومأ وليد برأسه وقال بنبره حزن ٠

ــ حيث لا يعلم الله ٠

فأرتاع وجه فهمى رعبا وارتعصت سرائره فقال متشنجا ٠

ــ لا ، نحن نسير الى الوطن الى مرفأ الأمان ٠

حدجه وليد بطرف عينيه وقال متبرما ٠

ــ نعم نحن نسير الىالوطن ولكن ما أعنيه ان الرحلة مازالت شاقه وطويله ويجب علينا ان نتحملها فى صبر وجلد ٠

ضرب فهمى صدره بقبضة يده وأخذ يحوم كالطائر المذبوح ويقول فى عصبيه ٠

ــ رحلة شاقة ؟ صبر وجلد : هل سنتحمل أكثر مما تحملناه ليس فى طاقتى ان اتحمل أكثر من ذلك وأنشــأ يبكى حتى تهاوى على الارض ٠ فحاول زهانه ان يتدخل فمنعه وليد وقال :

– دعه لاحزانه الكلام يثير حفيظته .

. . . . . .

كان حصاد معارك الامس الدابر داميا ، وكانت اطلال المواقع مازالت تنفث الدخان الأسود وتفوح منها رائحة تزكم الانوف . والجثث على امتداد الصاطىء متناثرة ومبقورة البطون ومقطوعة الرءوس – ومبتوره الأطراف واشباح الموت تهيم فى كل بقعه من اصقاع الصحراء المترامية وبقايا المعارك مازال متفجرا تهدر بالمدافع وتزرع النيران فى قلب السماء وينشق الأفق بين الحين والحين بمناجل الموت . ونظر زهانه الى شريط من الدخان الأسود وهو يتصاعد من خلف كثب رملي قريب منهم فأشار بيده ناحيته وقال بصوت متهدج .

– ماذا هناك ؟

اشرابت رؤوس الجنود وحملقت العيون اليه وقفز وليد الى ربوة عالية وحدق بعينين مجهدتين ثم قال منفعلا :

– انى اسمع انات متقطعه .

فتقدم اليه زهانه واتجه الاثنان ببطء ناحية الدخان المتصاعد وكانت بقايا النيران مازالت متقده تحت هشيم أسود فذعر الاثنان عندما رأيا عشرات الجثث ايتناثره والمدفونه تحت هشيم السلام المدمر وانتفض زهانه عندما اصطدمت عيناه بجندى مبتور الساقين وملقى فى حفره مخضلة بدماء قاتمه ويئن انات موجعه وتطل من عينيه نظرات خائفه تشرف على الفناء فنزل وليد اليه وحاول ان يرفعه من داخل الحفره . فحدجه الجندى المبتور الساقين بنظرات واهنه وقال بصوت مرتعش وبانفاس متقطعه .

– ماذا تفعل ؟ دعنى ... ارحلوا . لقد انتهيت .

ثم افرزت شفتاه الزبد وعلا صـــدره وانخفض وعاد يقـول والكلمات تتناثر على شفتيه ·

ـ أريد قليلا من الماء ·

بحث وليد فى زمزميته فلم يجد بها ماء فعلت وجهه سحابه حزن عميق فبكى الجنـــدى وارتجفت شـفتاه وأمال فمه وأفرز خيوطا من الدماء ثم قال بصوت يقطر ألما ·

ـ يادفعه ·· لى ثلاثة أولاد أتوسل اليك عندما تعـــود الى الديار أن تزورهم وتقول لهم ان الله موجود وترقرقت دمعتـــان حارتان على خديه وعاد يقول · ولا تقول لهم انك رأيتنى هكذا بدون ساقين ثم انخرط فى بكاء طويل ·

وفجاة اندفع فهمى أمام الجندى المبتور الســـــاقين وصرخ صرخات مدوية وراح يحوم حول الخفره ويصرخ ويتشنج الى أن سقط على الأرض وأسبل جفنيه ونرد ساقيه وبسط يديه ثم غط فى نوم عميق فالتف الجنود من حوله وقال أحدهم بصوت صارم ·

ـ نترك الاثنين معا ·

وقال جندى آخر :

ـ ننتظر فهمى أما الجندى المبتور الســـاقين فلا أمل فيه ·
اعترض جندى متجهم الوجه وقال متبرماً :

ـ كل جندى يفر بجلده ·

نظر اليهم الجنـدى المبتور الســاقين فى حزن وقال بصـوت مرتعش :

ـ اذهبـــوا واتركونى وأخذ يلهث وتتقطع أنفـــاســـه

وينتفض جسده بالرعشه الى ان فارق الحيـاة فالتف الجنـود من حوله وقرأوا عليه الفاتحة ثم غطوه فى حفرته بالرمال ·

واندفع وليد وزهانه الى فهمى وحملاه والقياه فى المياه الى ان ثاب الى رشـده وراح يضرب الماء بقدميه ويديه فلحقـا به وأخرجاه الى الشاطى ·

· · · · · ·

سارت جماعات الجنود تحت وقدة الشمس المحرقة وفوق ذرات الرمال المتقدة الى أن وصـلوا الى ربوة عالية تحيطها أشجار النخيل وبقايا أشـجار عارية كالحة فراوا جمـاعات من الجنود والمدنيين تفترش الرمال واخرى يسندون ظهورهم الى جـذوع النخيل وبينهم نسـاء طاعنات شاحبات الوجوه منهكات القوى وفتيات فى شباب نضر أذبله قفر الصحراء وقيظها . فجلس وليد وأسند ظهره الى جذع نخله وراح يقرأ مساحات الاسى العميق المرتسم على الوجوه الكليلة المتعبـة ثم حملق بعينين كليلتين الى صفوف النخيل وفى ثناياها التى تفىء بالظلال فرأى شيخا ضريرا يتوكا على عصاه فهب واقفا واندفع اليه مهرولا وأمسكه من يده ثم أجلسه تحت جذع نخله وقال بعينين حزينتين :

– ليس معك أحدا يا عمى الشيخ ؟

– نعم يابنى ·

– من أين آتيت ؟

– من العريش ·

قال وليد مندهشا :

– كيف حضرت ··· ؟

– حكاية طويلة يابنى · وتنهد تنهيدة طويلة وقال :

ـ بعد ان هاجم العدو مدينة العريش بالدبابات خرجت من منزلي وسرت ارتطم في جوانب المدينة وكان الواحد يمسكني بيده فترة ثم يتركني اتخبط في شوارعها. وكنت اسقط على الارض وتركلني الأقدام ويصك اذني دوى النار ، وبقيت على هذا الحال الى ان أخذني جندى في سيارته واخبرني بأنه سيأخذني معه الى مرفأ الامان وبينما كانت السيارة تشق عباب الطريق سمعت طلقة نارية أعقبتها صرخه عالية ثم توقفت السيارة وهي تغوص في الرمال ، شعرت بسخونه تبلل ملابسي فأخذت اتحسس الأشياء من حولى فاذا بالجندى ممدود على السيارة ولمست سائلا ساخنا يتدفق من صدره فأخذت أهز الجندى بعنف ولكنه لم ينطق فقفزت من السيارة مهرولا وكانت ذرات الرمال تكوى قدمي ووقدة الشمس تلفح وجهي وبقيت على هذه المنوال فترة الى ان أخذ الله بيدى وارسل الى من يأخذني هنا الى بر الامان . وسكت مليا ثم قال متسائلا :

ـ الى أين سنذهب يادفعه ؟

قال وليد وهو يلفظ الكلمات بصعوبة :

سنبقى هنا الى ان يهدأ الحال وبعد ذلك سنرحل على بركة الله . فأخذ الشيخ يقلب بيده ذرات الرمال ويقول :

ـ ربنا يحميك ياولدى انت تذكرني بابن لى استشهد في حرب ١٩٤٨ كان شجاعا جريئا ولن أنسى أحاديثه عن اليهود كان يقول لى سيحتل اليهود فلسطين كلهـا وسيشردون أهلها فيجب علينا الدفاع عن الارض والعرض والشرف يا أبى وكنا لا نصدق كلامه الى أن ظهرت الحقيقة جلية لنا وتطورت المعارك ومات ابنى في حرب ٤٨ وهو يقاتل اليهود .

واكفهر وجه الشيخ بالأسى واستطرد قائلا :

– تصــور يا ولدى ان اليهــود بعد موت ابنى حرمونى من زوجتى وابنتى • وزفر زفرة طويلة وعاد يقول لقد أقاموا فى قريتنا مذبحــة كبيرة مات على أثرها كثيرون ومن بقى حيــا فر هاربا وكانت زوجتى وطفلتى مع هؤلاء وللآن لم اعثر لهم على اثر .

وبعد ان اتم الشيخ كلامه أسند ظهره الى جذع نخله وبسط كفيه وعلا وجهه المجهد فكر حزين ثم لاذ بالصمت • وفجأة انتفض جنــدى من مكانه مذعورا وظل يحملق الى طفلتين صغيرتين طفله لا تزيد على ثمانية سنوات تمســك بأخرى أصغر منها وقام كل الحاضرين من أماكنهم يتطلعون الى الطفلتين فى ارتياع وجــذع وهرول جندى نحو الطفلتين وانحنى أمامهما ثم امسك بالطفلة الصــغيرة من يدها وقبلها وانحدرت دمعتان حارتان على خديه فنظرت اليه الطفلة الكبرى الممزقة الثياب المبعثرة الشعر فى خوف أخرس وصرخت الصــغرى • فانتابت القشعريرة سرائر الجميع وهرولت الى الطفلتين امراة شابة غارقة العينين بالدموع واخذت تقبل الطفلتين فى حنان اسطورى وراحت تبكى وتولول فاحاط الجنود بالطفلتين واشرابت نحــوهم الرؤوس واخترق الجميع الشيخ الضرير المسن وعلى وجهه عاصفة من الانفعال وكانت يداه تهتز فوق عصاه ولحيته المخضلة بالدموع ترتعش ونظراته الكفيفة الضالة تبحث بوحى من احساسها عن الطفلتين . فضمت الطفلة الكبرى الصغرى فى خوف وقالت مذعورة :

– أختى سلوى ، بلدتنا حرقها اليهود وأبى وأمى واختى ماتوا هناك ثم اجهشت بالبكاء •

تسمرت النظرات القلقة على وجوه الجميع وساد المكان شعور رهيب وأخذ الكل يلعق جراحه ثم شق الصفوف الشيخ الضرير المسن وأمسك بالطفلتين وضمهما الى صدره فى حنان عميق ، وبكت

الطفلتان وبكى الشيخ بصوت مخنوق وحاول أن ينزع من قلبه ابتســـامة ليمنحها للطفلتين فلم يجد ، لقـد خـوى القلب من الابتسامات · ووقف الجنود من حولهم مختنقى الحلوق وفجأة دوى أزيز طائرة منخفضة فوق الرؤوس ففقد احد الجنود صـوابه واطلق طلقات متتابعة ، وفى التو أمطرت الطائرة المكان بوابل من قذائفها فدفن الجنود بأنفسهم دفنة الموت فى الرمال. ثم برحت الطائرة المكان وبقيت على أرضه إثار المذبحه ذهب وليـــد مهرولا يبحث عن الطفلتين فلم يجد لهما أى أثر · وهناك خارج الربوه وجد أثار اقدام صغيرة فسار فى اتجاهها وعلى مرمى البصر وجدالطفلتين مذبوحتين فوق الرمال · وقف وليد امام الجثتين الممزقتين مرتاعا ثم لحقت به جماعات الجنـود فى ذهـول وتتلوى على وجوههم نظرات مرتجفة وترتعش بين شفاهم كلمات تقطر حزنا .

أشار وليد بيد كليله متعبه الى زهانه ثم ذهبا الى الجثتين ولحقتهما جماعات أخرى من الجنود وحفروا حفرتين من الرمال ودفنوا كل جثـة فى حفرة وغطوهما بالرمال ووقفـوا أمامهما يتمتمون بآيات قرآنية كريمة .

ومن خلفهم كانت شمس الصحراء تغرب فى أصيل مخضب بالغسق ·

هد زهانه التعب فأخـذ يسحب قدميـه بصـعوبة ويلفظ انفاسه بمشقة قال له وليد .

ـ نستريح قليلا ؟

قال زهانه وهو يلهث • نعم لقد بلغ بى التعب مداه •
اتسعت عينا فهمى وقال بعصبية :
لا وقت للراحة ، سيلحق بنا العدو ويقتلنا •

قال زهانه متبرما •

ـ أذهب حيثما تريد •

أفترسه فهمى بعينيه ثم قال فى غيظ :
ـ لن أذهب وحدى •

قال زهانه :

ـ معك سلاحك دافع به عن نفسك .

أشار فهمى بأصبعه الى رشاشه وقال بعصبيه •
ـ اصد بذلك دبابات العدو ومدرعاته : انك تخرف •

فحدجه وليد بنظره متقده وقال وهو يكظم غيظه :
ـ مسيرتنا طويلة وشاقة وتحتاج الى زاد من الراحة .

قال فهمي منفعلا :

ـ انك توافقه في كل شيء يا وليد ..

قال وليد في حده :

ـ انت تعلم اننا ثلاثة فقط ، افترقتنا جماعات الجنود لسوء تصرفاتك وعليك ان تزمع لكل ما نتفق عليـه وقـايه لأنفسنا ، فتركهما فهمي واتجه بعيدا وراح يدور حول تل رملي مغطى بالعشب ويرنو الى البحر ثم ارتقى الربوه ويحدق في الأفق ثم صرخ صرخه مدوية ونزل مسرعا الى أسفل مندفعا نحو رفيقيه مهرولا فانتفض وليد من مكانه مذعورا وقال وهو يتفرس وجهه في دهشه ·

ـ ماذا دهاك ؟

أجاب فهمي وهو يلهث :

ـ تعال معي لترى ما رأيته ·

قال زهانه بصوت متهدج :

ـ أمرك غريب وشاذ ، افصح ، تكلم ·

ارتعشت الكلمات على شفتي فهمي وقال مرتاعا :

ـ لا أستطيع · قال وليد في غضب :

ـ أمسك به يا زهانه ، سأتبين الأمر بنفسي ·

ثم صعدالربوة ودار بعينيه يمنة ويسرة وهاله مارأى، قرية متناثرة الأشلاء ومحترقة الدور وتنفث من ثناياها سحبا سوداء فأشار وليد بيده يدعوهما للحضور ثم دخلوا القرية بحذر شديد وكانت رائحة الدخان تشيع في المكان كله وآثار جمرات نار خافتة تتنفس بوهن وكانت بعض الدور مفتوحه على مصراعيها وهشيم الأشجار والنخيل متناثرة والجثث تطل برؤوسـها وأذرعتهـا

واقدامها من تحت الانقاض المتراكمة وكان المكان كله يمتلأ برائحة الموت والرهبة ، فظهر الارتياع على وجه فهمى واهتزت اوصاله وقال مرتجفا :

ـ هـذه الأشياء تمزق قلبى والحيـاة تذوى من أمامى .
واضاف بصوت متشنج .

ـ سأغادر هذا المكان ، انى اختنق ، اختنق .

وشعر بغثيان وبدوار ثم سقط على الارض فاقدا رشـده . فسحباه وليد وزهانـه الى حائـط متهدم وراحا يجوسان أطلال القرية المهجورة وقمز زهانه الى بيت مفتوح ولحقه وليد ودخلا الدار ـ مسرعين وكانت اثار النـار والدخان تطبع فوق جـدار البيت بصمات قاتمة .

صفق زهانه بيده وتهلل وجهه بشرا وقال مسرورا .

ـ انظر يا وليد هذا الطعام الممدود على المنضدة .

ـ مد وليد يده الى قطعه كبيرة من الجبن وقذفها فى فمـه والتهمها فى نهم ورأى زهانه على قطعة من الحلاوة واخذ يستحلبها فى لذة . ويقول فى سعادة :

ـ زاد طيب يكفينا شر ويلات الطريق .

قال وليد :

ـ احتفظ لفهمى بجزء والباقى سيكفينا بعض الوقت .

قال زهانه :

ـ الى ان يمنحنا الله بوليمه أخرى .

ثم راح يضحك ويقهقه منتشيا بالسرور .

دفعه وليد بخفه بقبضه يده وقال مبتسما ·

ـ تضحك يازهانه فى احلك الظروف · ؟

ـ حياتنا لا تحتمل شقاء أكثر مما نحن فيه ·

ثم راحا يطرقا نبقايا المدينة التى تعرت من ارديه الجيـ‍ـ‍ـدة واتشحت بظلال الموت الأســود وفجأة تسـمرت قدما زهانه فى مكانها وبرقت عيناه فزعا ، ثم قال والكلمات تختنق فى حلقه ·

ـ انظر يا وليد ·

فاصطدمت عينا وليد بامرأة مبقورة البطن والتصـق الى صـدرها طفـل صـغير قطعت رأسـه وتدلت بجـانبه مخضبة مكانها وبرقت عيناه فزعا ثم قال والكلمات تختنق فى حلقه ·

ـ هيا بنا سريعا ·

وانصرفا مسرعين وكان فهمى مازال فى مكانه يغط فى نوم عميق فامسكه زهانه من رأسه وأخذ يضرب بهما الرمال ويقول فى حده :

ـ قم أيها الشقى انك تؤرقنى دائما بافعالك الشاذه ·

فصحا فهمى من غفوته وأخذ ينظر من حوله فى جذع ·

فدفعه : زهانه بقبضة يده وقال فى غيظ :

ـ عد الى وعيك أيها الثمل ·

وكانت الشمس تتوسط السماء وتغسـل حرارتها الوجوه بالعرق وتنفث حممهـا فى بطن الرمال وضربات البحر عن بعد تصرخ صرخات متلاحقه ·

قال فهمى والعرق يتصبب من وجهه :

ـ لا أستطيع السير أكثر من ذلك ٠

فرد رهانه متبرما ٠

ـ سنتركك وحيدا ٠

قال فهمى والدموع تترقرق فى عينيه ٠

ـ دعونى أموت هنا ، أذهبوا أنتم حيثما تريدون ٠

فتدخل وليد وقال بكلمات قاطعة حاسمة :

ـ قم يا فهمى ، كفاك ما تفعله فينا ٠

وفجأه تدافعت الى اذانهم صلصله عجلات حديديه ٠

رنا وليد الى الطريق فوجد اشباح دبابات تتقدم بسرعة كبيرة نحوهم ٠

قال فهمى مرتجفا :

ــ العدو يقترب منا ، سيقتلنا بدباباته . ؟

أربدت ملامح زهانه وقال غاضبا :

ــ لا تنبس بأى كلمة .

وأضاف وليد وحمره قانيه تكسو وجنيته :

ــ كفا كما هراء ، هيا نتدبر أمرنا .

وهب وليد واقفا وراح يتفرس الأشياء من حوله ثم اشـــار باصبعه الى بقايا منزل متهدم وقال :

ــ هيا الى هناك .

وتوارى الثلاثة فى اطـلال المنزل المهجور وكانت رائحـة التعفن تفوح فى كل بقعه منه ومخلفات النار تعلو جدرانه وتغطى سقفه بألوان قاتمة . فأمسك الثلاثة عن الكلام وران عليهم الصمت ووقف وليد خلف الحائط ينظر الى الخارج من ثقب أحدثته قذيفه فى قلب الحائط وراح يترقب دبابات العـــدو وهى تتقدم بسرعة نحوهم وما ان أصبحت على مشارق القرية المهجورة حتى انهار فهمى وأخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة ويحملق الى أجســامها الحديدية فى رعب وجذع فتفرس وليـد وجهـه بغيظ وقال وثار الغضب فى عينه .

– فليضع كل منا أصبعه على الزناد ·

فتقلص وجـــه فهمي بالقلق وقال والكلمات ترتعش بـين شفتيه :

– تصد هذه الدبابات برشاشاتنا ؟

قطب وليد حاجبيه وقال في نبرة جد :

– لن نبرح هذا المكان ، وسنقاتلهم اذا اقتربوا منا ·

فاطبق زهانه شفتيه ووضع يده على رشاشه وراح يستجمع قواه المشتته بصعوبة ويدور بعينيه يمنه ويسره ·

وأخذت الدبابات تطوى عباب الطريق وتفجر الصمت المطبق الذى ســـاد اطلال القرية ثم وقف على مدخـــل القرية عدد من الدبابات ·

وتقدمت ثلاثة أخرى تشق جنباتها وتهرس اطلالها وتدمر بقذائفها بقايا المنازل الموجودة وكانت أقوسه النيران وشظايا اللهب تأكل ما بقى من جدر فيتطاير الغبار ويتناثر يســـد قلب الافق بسحب سوداء داكنه امتدت على مرمى البصر ·

كادت انفاس فهمي أن تزهق وعلت وجهه صفره قاتيه وازدادت ضربات قلبه وقال وهو يلتفظ الكلمات بصعوبة ·

– سيقتلونا سأفر بجلدى هاربا ·

فصوب زهانه رشاشه الى صـــدره وقال والشرر يتطاير من عينه ·

– سأقتلك قبل ان تفعل هذا ·

دنا وليد من فهمي وحملق فى وجهه طويلا ثم قال هامسا :

ـ صه يا فهمي ، تجمل بالشجاعة · الله معنا ·

امتلأت شفتا فهمي بالزبد وتجمدت نظرات الهلع على عينيه ثم لاذ بالصمت ·

وظلت الدبابات تدور وتجول الى ان غادرت القرية ووقفت بجوار الدبابات الأخرى على مشارق مدخلهـا ، ثم راحت تتحرك كلها متخذه طريقين فى مسارين مختلفين ، وبقيت دبابة واحده على مدخل القرية دون حركة ·

فاسترد زهانه أنفاسه وقال وبصيص الفرحة على وجهه ·

ـ واحده فقط ·

قال وليد ودلائل الارتياح على وجهه :

ـ هان الأمر ·

قال زهانه :

ـ ماذا سنفعل ؟ سنظل هنا دون تصرف ؟

ـ صبرا يا زهانه ·

فهب فهمي واقفا وقال مذعورا :

ـ اليهود يخرجون من دباباتهم ·

افتر ثغر وليد عن ابتسامة عريضة وقال :

ـ هذا ما نتمناه ·

برقت عينا زهانه وقال والدهشة تعلو وجهه ·

ـ لأول مرة أري فيها يهودي ·

قال وليد ساخرا :

ـ حرب طويلة وأيام شاقة مع الموت والدم والنار ولا نرى اليهودى الا فى هذه اللحظات ٠

قال زعانه :

ـ انهم لم يحاربوننا الا من خلال أسلحتهم الثقيله ٠

فقال وليد فى ألم :

ـ واجهت أجسامنا حديدهم ونارهم ٠

أشر أب زهانه برأسه وقال :

ـ أريد ان أراهم وادقق النظر فى ملامحهم ، هل قسماتهم تشبه قسماتنا ٠

اعتلت وجه وليد انفعالات حاده ثم قال :

ـ لا شك انهم يملكون مثل ما نملك ٠

ضحك زهانه ضحكة مكتومة وقال ساخرا :

ـ اليهودى يملك عينين وأذنين ويرى كما ترى ويسمع مثلما نسمع ؟

وفجأة تناهت الى أسماعهم صرخات أنثوية ، فاشرأب وليد برأسه فاصطدمت عيناه بفتاة بدوية تصرخ وهى وسط أغنامها ثم شاهد جنديا اسرائيليا يلتقط الفتاة من وسط أغنامها ويرفعها ثم يجلسها فوق الدبابة ثم ارتقى الاثنان الدبابة مجاورين زميلهم٠ ثم وقف الثلاثة وصوبوا رشاشاتهم الى الأغنام وأخذوا يطلقون النار حتى فتكوا بكل الأغنـام فأخذت الفتـاة تصرخ وتستغيث وتبكى فالتصق بها الجندى الاسرائيلى وأخذ يقبلها والفتاة تصده بكل قوتها واليهودى لا يكف عن ذلك ثم هجم عليهـا وراح ينزع ملابسها بوحشية ٠

انفجر الغضب في أعماق وليد وهدرت انفعالات حادة في جسده كله فأمسك برشاشه ونهض قائما والشرر يتطـــاير من عينيه ٠

قال زهانه في دهشة :

ـ ماذا ستفعل ؟

قال وليد والدماء تفور في وجهه :

ـ سأقتلهم ٠ فرد زهانه على الفور :

ـ وأنا معك يا وليد ٠

وانطلق الاثنان خلف أطلال القرية وبين جنباتها وصرخات الفتاة تتدافع الى آذانهم أنات مبرحة ثم اختفى الاثنان خلف ساتر ترابي وصوبا رشاشيهما الى الجندين الذين وقفا تحت الدبابة وفي لحظة واحـدة خرجت النيران وألقت باليهودين جثتين مضرجتين بالدماء فقفز الثالث الى برج الدبابة محاولا الفرار فاندفع وليـد نحوه وتمكن من اللحاق به وفي سرعة وخفة دس وليد يده في برج الدبابة وأطبق بهما على عنق اليهودي فأخذ اليهودي يجأر بالصراخ ويتلوى بين ساعديه القويتين وتمكن وليد من اخراجه ثم قذف به فوق الرمال فسقط وسط بركة من الدماء تسبح فيها جثث الأغنام، فسطعت في عيني وليد نظرات متوهجة بنور غريب وأخذ يحملق الى الاسرائيلي وهو يلهث ويئن وسط الرمال المخضلة بالدماء وهو يغوص بوجهه وعنقه في اللحم الممزق ٠ وكانت البدوية تبكى وتئن وتقول في حسرة : قتلوا أغنامي ، قتلوا مصادر رزقنا ٠ يامصيبتك يا ٠٠٠٠٠٠٠ اندفع زهانه منتفضا بالغضب ناحية اليهودي وقال وعيناه تقدحان بالشرر :

ـ مثلك لا يستحق الا الذبح ٠

ثم صوب اليه رشاشه وراح يضرب دون وعى على اليهودى حتى أصبح جثة ممزقة والتصق لحمه بلحم الأغنام فاختلط اللحم باللحم وامتزجت الدماء بالدماء فى حبات الرمال ثم تنفس زهانه نفسا طويلا وقال ووجهه يطفح بالبشر قتلته · فجذب وليد البدوية من يدها وقال متسائلا :

ـ أين دارك يا فتاة ·

أشارت بيدها الى قلب الصحراء وقالت والدموع تترقرق فى عينيها :

ـ هنـــاك ·

ثم لحق فهمى بوليد وزهانه وأخذوا الفتاة بين أيديهم حتى بدت لهم عن قرب أشباح خيامهم السـوداء فقال وليـد لها فى عجل :

ـ الى هنا سنضطر مغادرتك حرصا على حياتك لأن العدو اذا عرف ذلك سيقضى على كل أهلك · وتركوها وعادوا مسرعين ·

قال زهانه بارتياح :

ـ حكمتك لا تفارق شهامتك ·

ثم اتجهوا الى الشاطىء وكانت الشمس تتوارى خلف الافق المكلل بغسق الغروب ·

هبط الليل واتشحت الصحراء بأردية الحداد وتعالت ضربات الأمواج تغسل تلال الشاطىء الرملى وتهدر فى السكون المطبق ٠

قال زهانه والدموع تفيض على وجنتيه :

ــ نعود الى البحر وتعود معه الذكريات ٠

ثم حدق الى النجوم وهى تزهو فى قلب الظلمة وقال هامسا وهو يشير اليها :

ــ جمالها يأثر لبى بحب غريب فيه الفرحة والحزن واللقاء والفراق ٠ فضغط وليد على يد زهانه وقال بصوت هادىء :

ــ لا تفجر المشاعر المدفونة فى صدرى ودعنى أعيش موقفى فتنهد زهانه وقال منفعلا :

ــ كيف لا أفكر ؟ لم لا أشعل فى النفس قتيل الذكريات ٠ ثم سكت لحظة وقال ووجهه مخضل بالدموع :

ــ كلما خلوت بنفسى بعيدا عن الدم والموت والدمار هبطت على رأسى أطياف أولادى بوجوه حزينة وأشعر بأنهم يحترقون حزنا وأمهم فى وحشة الغربة لا تجد لهم الكلمات ولا العبارات ، ويعجز لسانها وينفطر قلبها ٠ أعيش هذه المحنة يا وليد كلما خلوت بنفسى ٠

قال وليد متأثرا :

— تحدثني حديث الأولاد والبنين والزواج والوجود فأقول لنفسي محظوظ أنت يا زهانه لك أولاد سيحملون اسمك عندما تغيب عنهم غيبة الأبد أما أنا فسوف أترك أما ثكلى ستظل تنوح حزنا على الى أن ترحل وبعد ذلك يفتقد اسمي وجوده ويندثر ويتلاشى ٠

— لا يا وليد ما تقوله ليس الصواب ، الولد اذا فقد أبيه سيرضع العذاب في كل لحظة ومن هنا تكمن المأساة لمن له ولد ٠
ثم استطرد ساخرا :

— وربما تتزوج الأم وتترك بنيها يعانون من الحياة مرارتها
ثم راح يبكي ويتشنج ٠

وعن قرب خفت أمواج البحر ٠ وهمد صخبها وهدأت لجته٠ وانسابت الزرقة صافية الاديم وهبت النسمات هادئة ساكنة ترتل أناشيد الزمان السرمدي ٠

وفجأة كسر سكون الصمت ازيز موحش فرفع وليد رأسه الى السماء ورأى طائرات بذيول من لهب متوهج تشق دجنة الليل المترامية وتحوم فوق الشاطىء وتلقى بفوانيس ضوئية فجثى وليد على الرمال وحدق في قلب السماء المتوهج باللهب وقال جذعا :

— هيا سريعا الى المياه ٠

وتتابعت الفوانيس الكاشفة فوق الشاطىء فأحالت دجنة الليل الى نهار ساطع فظهرت تلال الشاطىء الرملي ومسح النور سحابات الليل السوداء فبدت المياه صافية الاديم ، وكان الرفاق الثلاثة يغوصون في قلب المياه كلما تدافع الى آذانهم ازير الطائرات الموحش ثم يطلون برؤوسهم ويلتقطون أنفاسهم بصعوبة وكان وليد ما زال محتفظا بقسط كبير من حيويته ونشاطه وزهانه

يقاوم اعياءه وتعبه بجلد أما فهمى ففقد السيطرة تماما على قواه فكان يتقلب على ظهره وعلى بطنه ويضرب قلب الأمواج بيديه وقدميه دون وعى وأحيانا كان يخرج مهرولا الى الشاطىء ويملأ صدره بالهواء ويندفع الى المياه بعصبية ، وكثيرا ماكان ينزلق الى عريق الموج فيلحقه وليد ويقذف به الى الشاطىء وظلت الطائرات تقترب وتلقى بكشافاتها مدة طويلة الى أن تلاشت واختفت وابتلع الليل النور وعادت الظلمة ، فخرج الثلاثة من المياه بأقدام كليله وبأنفاس لاهثة وألقى فهمى بنفسه على رمال الشاطىء وفرد جسمه وأخذ ينظم أنفاسه بصعوبة وراح يحملق فى ظلمة الليل وفى نجومه الساطعة وطافت برأسه أشباح غريبة ، نساء عاريات مبعثرات الشعور يسبحن فى قلب الظلام وفى أيديهن عمد ملتهبة ورجال غلاظ بارزو الأنياب يسبحون وراءهن وفى أيديهم مناجل تقطر دما ، ففقد فهمى السيطرة على نفسه فانتفض من مكانه وألقى بنفسه على الشاطىء ومد ساقيه الى الماء وفجأة شعر بجسم صلب يصد قدميه من أسفل يصطدم بساقيه فهب واقفا واصطدمت عيناه بجثة تطفو على سطح البحر وهى جاحظة العينين متآكلة الأطراف عارية الملابس فذعر فهمى وارتاع وجهه ثم قفز الى الرمال وأخذ يضربها بقدميه ويتشنج ويصيح ويصرخ وأفرزت شفتاه الزبد وشردت عيناه فاندفع وليد ناحيته فدفعه فهمى بكل قوته فسقط على الأرض وارتاع زهانه من منظره ثم دار فهمى دورات سريعة وراح يصرخ من جديد ويتمتم بألفاظ غير مفهومة وأخيرا اندفع مسرعا الى قلب الظلام وظل يجرى ويجرى ويتعالى صوته أصداءا عالية تكسر سكون الصحراء الى أن تلاشت واختفت الأصداء فى أحشاء الظلام والسكون المطبق .

فحدق زهانه الى كتل الظلام المترامية وشعر بالكآبة تملأ وجهه ثم قال حزينا :

ـ ورحل عنا رفيق آخر ٠

هز وليد رأسه وقال والعبرات في عينيه :

ـ رحيل من نوع جديد ٠

وتلوى زهانه وشعر بالرهبة تحيط من حوله وبالسنة النار تكوى صدره ثم قال في حسرة :

ـ غرق فى الظلمة وفى الصباح سيكون فى أيدى الاسرائيليين قتيلا أو أسيرا ٠ ثم جلس زهانه الى الشاطىء وأرهف السمع الى تسبيحات الأمواج وهى تتهجد فى هدوء الليل ، فتـدافعت الى رأسه صورتا طفليه وهما يجلسان في ركن داره ينتحبان في حرقة فشعر بأحزان غريبة تتغلغل في صدره وبأحلام مزعجة تطوف أمام عينيه وتصدر منها أنات موجعة ثم تلاحقت الأطياف وتتباعت فطاف به الرقيب فرحات في قلب الظلام فارسا يمتطى صهوة جواد أبيض ومن حوله هالة من النور تسطع بنور لامع وطيف حسين وهو حزين كسير الفؤاد وتتابعت الصور واشتبكت وتلاحمت ٠ فانتفض زهانه مذعورا وجذب وليد من ملابسه وقال في ارتياح :

ـ الى متى ستظل هكذا ؟

قال وليد بوجه شاحب وبعينين غائمتين :

ـ الى أن يفرج الله كربنا ٠

قال زهانه وهو يتفجر بالألم :

ـ الأحزان تتوالد فى رأسى كل يوم ٠

رفع وليد رأسه وأخذ يتفرس وجهه من خلال الظلمة الداكنه وقال بصوت أشبه بالنواح :

ـ تجلد يا زهانه ما زال الطريق أمامنا طويلا ٠

قال زهانه والنظرات تتلوى على وجهه :

ـ لا أحتمل أكثر من ذلك ٠

ثم زفر زفرة طويلة وعاد يقول منفعلا :

ـ رفاقنا يرحلون والأمور تسوء يوما بعد يوم ٠

قال وليد وهو يلفظ الكلمات بصعوبة :

ـ هذا هو قدرنا وعلينا أن نتحمله فى جلد ٠

رفع زهانه يده وأشاح بها فى الظلمة وقال متأثرا :

ـ لم أعرف الخوف فأنا صياد عركت هول الرياح والأمواج، ولكن ما يؤرقنى حقا فى تلك اللحظات هو هذه الهزيمة المرة التى ألمت بنا فى سرعة مذهلة لقد ذبحت آمالنا على مشهد منا والآن أصبحت أخشى اليوم الذى أواجه فيه الناس ماذا سأقول لهم ؟ وماذا سيقولون لى ؟ أشعر بأننا نعيش ليلا طويلا لا نهاية له ٠

أذابت هذه الكلمات ، جليد الصمت فى صدر وليد وشعر بعاصفة هوجاء تزمجر فى أعماقه فشرد لبه وعاودته أطياف ذكريات مبرحة فأطرق رأسه الى الأرض وراح يفكر فى عمق ٠

فهزه زهانه هزا عنيفا وقال مندهشا :

ـ ماذا دهاك ؟

التفت اليه وليد وقال وهو شارد العينين :

ـ لا شىء ٠

ـ انى أعرف ما يدور فى خلدك انك تسخر منى وتسخر من تصرفاتى ، عواطفك يا وليد ما زالت متحجرة ٠

فنظر وليد اليه بوجـــه شاحب وقال والدموع تطفر من عينيه :

ـ لا يا زهانه كلنـا يعيش مصيبته ، قلبى ليس متحجرا ولكنى أحاول أن أصد عنه أشباح الهزيمة كلما واتتنى بصورها وظلالها ودمهـا ودمارها • أشـياء مفزعة لا قدرة للانسـان على احتمالها •

سرت الكلمات فى قلب زهانه كسريان النار فى الهشيم • وقفزت فى رأسه صـور الأيام ووقائع الأحداث • ورفقة الرجال ورحيل الرفاق فتقلص وجهه وهدرت بين ضلوعه أحزان موجعه • فمال برأسه ناحية وليد وقال فى هدوء حزين :

ـ من هنا سوانا أنا وأنت فقط ـ بقايا سرية انفرط عقدها قد استشهد منـا من استشهد وولى الادبار من جبن وهام فى الصحراء من أضلته السبل وبقينا هنا معـا نغزل الحزن بأيدينا أعطيك مرة مغزلى وتعطينى أخرى مغزلك وهكذا سنظل على هذا الحال الى أن يفرج الله الكرب عنا • فحملق وليد فى وجه زهانه طويلا وقال :

ـ علمك البحر أشياء أجهلها •

ثم خلع وليد خوذته ووضع رشاشه بجانبه وتوسد الرمال وقال :

ـ علينا أن نأخذ قسطا من الراحة •

وسكت مليا وأضاف :

ـ لك نوبة فى الحراسة ولى أخرى •

وأخلد الى النوم •

(١٦)

غزل الفجر خيـــوطه الفضية فى قلب الظلام وابيض وجه السماء بالنور ثم انفتحت بوابات الأفق الداكنة على قرص الشمس يسبح فى بحـــيرة حمـــراء وتهادت فوق البحر الفيروزى طيـــور بيضاء .

بهر وليد موكب الشروق فنهض واقفا وذهب الى الشاطىء وأخذ يملأ رئتيه بنسمات الصبح الندية المغسولة برذاذ البحـــر الأزرق فشعر بأفكار غضة تنساب فى مخيلته وتزيل عن صدره غضـــون الأيام الســـوداء وجراحاتها المبرحة فقال لنفسه مخاطبا (هـــل يتورد الشفق فى قريتك الآن يا وليد ؟ وهـــل الفرحـــة ما زالت ترتسم على وجوه الفلاحين بالحب والرضا ؟ وأمك يا وليد ما زالت ترضع الحب والخـــير للنـــاس وتسقيهم جراعات الأمـــل الصادق ، ثم سكت مليا وشعر برجفة تسرى فى سرائره وعـــاد يقول (وحبيبتك وداد هل ما زالت باقية على عهدها) فاخضرت الدنيـــا من حـــوله وفاضت على وجنتيه سعادة غامرة فذهب الى الشـــاطىء وخلع ملابســـه ونزل الى المياه وأخـــذ يعانق الأمواج ويضرب قلبها بقدميه .

فرمق زهانه وليد وهو يسبح فى الزرقة فهرول مسرعا الى الشاطىء وقذف بملابسه واندفع يشق الماء بذراعيه وراح يشـــير بيده لوليد فرحا وهو يعلو ويهبط فى سعادة غامرة وظل الاثنان

يسبحان في قلب المـاء مدة كبيرة ثم خرجا الى الشاطىء وعلامات البشر تطفح من وجهيهما ٠

قال زهانه جزلا :

ــ لأول مرة أشعر بهناء حقيقى منذ مدة طويلة ٠

فقال وليد والابتسامة ترقص على شفتيه :

ــ جمال الكون يسحر اللب يا حسين ٠

واستطرد زهانه قائلا :

ــ أتمنى أن تمسنى الفرحة كلما واتانى الكرب ٠

ــ فرحة تأتى ثم تدبر ويبقى الألم الحقيقى جاثما على صدورنا٠
فنكس زهانه رأسه الى الأرض وقال وعيناه مملوءتين بالدموع :

ــ حقا يا وليد سيظل الحزن ينفث دخانه الأســود فى أفق حياتنا ٠

وتطلع الى البحر وهو يقذف بأمواجه على الشاطىء ثم يرتد مموجا بالزرقة فى عبابه ٠ وراح زهانه يبحث فى جعبته عن كسرة خبز كان يحتفظ بها فى حرص فلم يعثر لها على أثر فكسر سكون الصمت وقال فى ضيق :

ــ ضاعت ٠

قال وليد ضاحكا :

ــ ولت الادبار ٠

فحملق زهانه فى وجه وليد وقال فى غيظ :

ــ أكلتها ٠٠ ؟

ــ معى كسرة خبزى ٠

ـ دعنى أراها ·

ـ صدقنى انها كسرة خبزى ومع ذلك سوف نقسمها سويا ودس وليد يده فى جعبته وأخرج منها كسرة خبز جافة وكسرها نصفين وأعطى زهانة نصفها ثم راح يلوكها بين فكيه ·

فقال زهانه بسعادة وهو يزدردها :

ـ لذيذة ·

ضحك وليد وقال ساخرا :

ـ ألذ من السمك المشوى ؟

نظر اليه زهانه وقال مبتسما :

ـ لا تجعل لعابى يسيل ·

قال وليد فى هدوء :

ـ جرعة ماء ·

ـ لم يبق سوى جرعات قليلة ·

قال وليد وهو يصطنع ابتسامة على شفتيه :

ـ قايضنى الخبز بالماء . ثم أخذ منه الزمزمية وراح يرتشف قطرات الماء بلذة كبيرة .

وفجأة تدافعت الى آذانهم صلصلة عجلات حديدية فاندفع وليد الى التلال الرملية ولمح طوابيرا من الدبابات والمدرعات تجوب الصحراء وتقذف الفضاء بنيرانها فأخفى وليد رأسه وهرول مسرعا الى زهانه وأمسكه من ملابسه وهمس فى أذنه مرتجفا :

ـ العدو يذرع الصحراء بمدرعاته ·

قطب وليد حاجبيه وقال وهو يغلى من الأعماق :

– ملك زمامها .

أضاف زهانه قائلا :

– وملك سماءها أيضا .

ثم راحا يحفران حفرتين فى الرمال وتمددا فيهما وقال زهانه وذرات الرمال تلسع جسده :

– كلما أتانا الفرج هبط علينا الكرب .

قال وليد وهو يفكر بعينيه :

– يجب علينا أن نغير خطتنا فى المسيرة .

– كيف .. ؟

– نسير ليلا ونختفى نهارا .

قال زهانه فى ارتياح :

– صدقت .

وظلت الدبابات والمدرعات تجوب الرمال وأسراب الطائرات تشق أجواز الفضاء وكان القيظ شديد الحرارة وأنفاس الظهرة تنفث الحمم . فتلوى زهانه فى مرقده الرملى وأخذ العرق ينضح منه بغزارة فأغرق رأسه وجسده ونظر الى وليد وقال فى ضيق .

– لن أحتمل أكثر من ذلك .

– أصبر يا زهانه .

– ذرات الرمال تكوى جسدى كله .

وانتفض واقفا من حفرته وقال وهو يتنفس بصعوبة :

– هيا بنا لم أعد أحتمل أكثر من ذلك .

فأمسك وليد بيده وراحا يسيران محتمين فى التلال الرملية الممتدة على الشاطىء ·

وتحت تل رملى وقف زهانه أطل برأسه مذعورا الى حفرة رملية متناثرة عليها بقع قاتمة · ورأى جثة ممددة فى قاعها وعلى حافة الحفرة لمح صـورة بين ذرات الرمال فاندفع اليها وجـذب الصورة وأخذ يحملق فيها بجذع ويقرأ كلماتها · فارتجف جسمه كله وتندت عيناه بالدموع ودارت الدنيا من حوله ، فجذبه وليد من ملابسه وقال مندهشا :

ـ ما يبكيك ·· ؟

أشار زهانه بيد مرتعشة الى الصورة وقال متأثرا :

ـ انظر الى الصورة واقرأ كلماتها ·

فرأى وليد الصورة لطفلة رائعة الجمال تملأ البسمة وجنتيها وتطل الفرحـــة من عينيها وقرأ خلفهـا (عمرا مديدا يا سلوى وسعادة غامرة فى ظل والديك الحبيبين توقيع والدك الحبيب ·· وحول هذه الكلمات تناثرت خيوط دماء جافة ·

فارتعشت الصورة بين يدى وليد وقال منفعلا :

ـ تيتمت الطفلة الباهرة الجمال ·

فقال زهانه وهو يتشنج · وستأكل الذئاب جثة أبيها · ثم دار وارتجفت سرائره واهتزت يداه وقال والكلمات ترتعش بين شفتيه :

ـ ومن يدرى ربما أموت مثل هذه الميتة وتنهش الطيور لحمى وتترمل زوجتى ويتيتم أطفالى ·

فقال وليد مهدئا من روعه :

ـ لا تطبق الأشياء على نفسك يا زهانه .

فزعق زهانه فى وجهه صارخا :

ـ الدنيا تسود من أمامى .

فجذبه وليد من ملابسه وصاح فى وجهه قائلا :

ـ هيا بنا .

وأخذا يسيران خلف التلال حتى هبط عليهما ليل الصحراء الطويل .

(١٧)

سقط زهانه على الأرض من شدة الاعيـاء والتعب وأخـذ صدره يعلو ويهبط ويتنفس أنفاسا لاهثة فهرول اليه وليد مسرعا ووسـد رأسه بسترته واقتعد الرمال وراح يتصـفح وجه زهانه المكدود المتعب وعينيه الغائرتين وشفتيه الجافتين المتشققتين ٠

ففتح زهانه عينيه بصعوبة وتأمل الأشياء المرتعشة من حوله ثم حملق فى وجه وليد وقال بعينين تقطر يأسا :

ـ قليلا من الماء ٠

أمسك وليد بزمزميته وقلب عنقها الى الأرض وأخذ يطرق عليها بأصابعه ويقول فى عبوس :

ـ نفد منا كل شيء ٠

قال زهانه بصوت متقطع وبأنفاس لاهثة :

ـ سأموت ظمآنا ٠

فنهض وليد وأخـذ يفتش فى الرمال ثم اقتنص قطعة من الزلط ومسحها بمنديله وأعطاها الى زهانه قائلا :

ـ ضعها تحت لسانك ٠

هز زهانه رأسه فى ألم وقال والعرق يتصبب من وجهه :

ـ ومن أين نأتى بالطعام ٠

ـ علينا أن نتصرف ٠

واستدار برأسه وأخذ يحوم حول التلال الرملية المعشبه ٠ وجز منها نباتا حتى جذوره وراح يزيل أوراقه الخشنة وأخرج منه لبا أبيض وصاح ضاحكا :

ـ طعام لذيذ يزيل عنك ضراوة الجوع ٠

فأخذ زهانه قطعة منها وقضمها بأسنانه وقال بصوت منكسر :

ـ لذيذة حقا ، انك لا تعرف اليأس يا وليد ٠

انبسطت أسارير زهانه وعلت وجهه ابتسامة خافتة وأخذ يتثاءب ويحملق فى التلال الممتدة على الشاطىء ويقول لنفسه مخاطبا (لقربنا من البحيرات ومنها سنصل الى القناة) وعاد يقول (مسيرة دامية يا زهانه زادها الدم والجوع والغربة) ثم أطرق برأسه الى الأرض ومضى مسترسلا فى تأملاته وقال (هل ستعود الى أولادك وزوجتك وستعيش معهم ثانية كما كنت تعيش٠ وشعر بنداء غريب يصرخ فى أعماقه ويقول ساخرا (لماذا تعود اليهم يا زهانه ألم تر مئات الجثث من حولك ألم تفقد فى مسيرتك زهرات شباب بلدك ؟ أنت ، أنت لماذا تعود ؟ فشعر بالنار تتلظى فى صدره فقام الى الشاطىء وبهرته الأمواج السابحة فى الزرقة فتهللت أساريره وانتشى قلبه فخلع ملابسه ونزل الى الماء وكان الأفق يواكب مسيرة الغروب والشمس على مذبح الرحيل مخضبة الرداء ٠

وانساب زهانه الى قلب الماء كما ينساب زورقه فى رحلات صيده وكان يدفع الأمواج برفق ويكحل عينه بعباب البحر الغارق فى الزرقة ٠ ثم علا الموج رويدا رويدا وزهانه لا يبالى الأشياء من

حوله وفجأة شعر بدفعة قوية تشده الى الداخل فى غريق الموج فأخذ يعلو ويهبط ويرفع يده فى الفضاء فى صعوبة ويدور بعينيه فى ذعر ويتجشأ الأنفاس ملحا مرا ورأى فوق رأسه طائرا بمنقار مدبب وبعد فترة وجيزة اسود الطائر أمام عينيه وتحولت المساحة كلها من حوله طيورا سوداء وموجا مغبرا ٠ وقف وليد فوق تل رملى صريع النفس مذبوح الفؤاد لا يصدق ما يراه فزهانه أمامه بقعة سوداء تطيح بها تلال داكنة الزرقة ومعممة بالبياض ــ وقف وليد أمـــام كل ذلك عاجز الحركة لا يعرف ماذا يفعـــل فالبحر من أمامه يعلو ويعلو وأمواجه تدمدم وتزفر بالحركة فراح يشد شعره ويضرب على صدره بقبضة يده ويصرخ ويتشنج ويصيح فى أعماقه قائلا (زهانه كان من دقائق بين يديك يا وليد يأكل بين فكيه لب الشيطانات الخضر ويمزج الألم بالبسمة مات ابن البحر وقانص كائناته فى بطنه الأزرق لتأكله أسماك صيده ، عرك البحر وعاش فيه صباه وشبابه وتوغل فى عبـابه يغنم منه فى كل مرة جوده وسخاءه مات رفيق مسـيرة الدم والجـــوع هـذه الميتة السريعة المفاجأة) فانهارت قوى وليد ودحرت عيناه فى الأفق وهو يودع رحلة يومه فى حزن وألم ، وعاد لنفسه مخاطبا (الى من ستعود يا وليد) الأشياء قد شحبت من أمامك والدنيا كشفت لك قناعها الحقيقى لقـد توارى كل أمل فيهـا ٠ استشهد الرقيب فرحات ابن الخضرة وينبوع الأمل ورفيق البسطاء الأشداء الأطهار ولثمت يدك حسين شهيد الحزن والعذاب المضنى الذى لا ينقطع وفقدت فهمى فى قلب الليل وهو يمزق نفسه بسياط عقله الغائب والآن وفى هذا المساء الشاحب فقدت زهانه قلب الحياة الضاحك ووجهها المشرق ثم راح يضرب الرمال بقدميه حتى انهمرت الدموع غزيرة على وجهه وعاد يقول بقلب ملتهب يحزن عميق (هذا بخلاف مئات الجثث وآلاف المشردين والضـحايا والثواكل والأيتـام والأرامل

بلدك يا وليد تسبح فى نهيرات دموع أبنائها ، ثم ألقى بنفسه على وجه الرمال وراح يغط فى نوم عميق ٠

★★★

تناثرت بقع الشفق المخضبة بالشروق ثم احمرت السماء بوقدة الشمس القائظة وتجمرت ذرات الرمال بلفح الظهيرة وامتد ظهر الصحراء مموجا بالوهج ٠

ظل وليد يطرق الرمال بقدمين واهيتين وأخذ العرق يتصبب منه ويغرق ملابسه وتجمدت على وجهه المجهد نظرات شاردة عادت الذكريات تهب على مخيلته من حين الى حين فيدفعها أحيـــانا ثم يتركها أحيـانا أخرى تسكب ظلالها وآلامها فى أعمـــاقه فيفقد اتجاهات قدميه وينعثر فى ساحة العراء الشاسعة فيهرع متنبها الى نفسه ويلقى بأقدامه خلف التلال الهاجعة على شاطىء البحر وكانت الحياة من أمامه تذوب والأمانى تذبح ولم يبق فى أعماقه سوى صقيع الذكريات الملبد بالغيوم يتكاثف ويعلو ويهبط ثم يتجاسر وينقض بأنيــاب كاسرة ينهش لحم الحاضر المعجـون فى مستنقعات الدم ٠

وأخذ وليد يحصى خطاه بليالى الماضى البارحات حتى انعدمت من أمامه دقائق المســتقبل وساعاته وأيامه وبقى الحاضر متشحا بسواد الظلمة وكان يشعر بانه يسبح فى دنيـــا فقدت بدايتها وأدبرت تحوم فى وادى سحيق ٠ ثم فاق وليد من هواجسه ومن شيطانات عبوسه على حقـائق الأشياء من حوله فقد فاجأته ثلاث عربات نصف جنزير واحاطت به ثم نزل منه شلة من الجنــود الاسرائيليين وهم شاهروا السلاح وتقدموا نحوه وفتشوه وجردوه من سلاحه ثم دفعوا به الى مدرعة وانطلقت بهم تنهب الصحراء وبعد ذلك توقفت عند حشود اسرائيلية تحيط بعدد من الجنود المصريين

فاصطدمت عينا وليد بجنديين اسرائيليين جذب أحدهما وليد من ملابسه وألقى به الى آخر أوقفوه بجوار جندى مصرى طويل القامة منجهم الوجه • وضرب الجندى الاسرائيلي المصرى بقبضة سلاحه فانقض عليه المصرى وقذف بسلاحه على الأرض وقبض على عنقه بأصابعه فهرول نحوه الاسرائيليين وخلصوه منه بعد أن سقط على الأرض فاقد الوعى ثم طرحوا المصرى أرضا وصـــوبوا عليه رشاشاتهم وأطلقوا عليه نيرانهم فى آن واحد • فتمزق جسد المصرى فاجتاحت وليـد ثورة عارمة فأراد أن ينزع الخوذة من رأســـه ويدق بهـا السفاحين فجذبه مصرى نحوه وهمس فى أذنه قائلا :

ـ صنه بقدر حروف الكلمات يكون الرصاص •

قيد وليـد نفســه بأصفاد غلاظ ووقف أمام الاسرائيليين بركانا يغلى من الأعماق ثم تقدم نحوه جندى اسرائيلى ودفعه بشدة الى الجانب الآخر فأراد أن ينزع الطوق الحديدى من حوله وذراعيه ولكنه تذكر كلمات المصرى فأظلمت الدنيا فى عينيه وتدافع الفكر الأسود فى رأسه وبعد لحظات تقدم الى السيارة واستقلها مع الجنود الى أن تسلمهم الصليب الأحمر وعلى الشاطىء الشرقى من القنـاة وقف وليـد والحزن يملأ قلبه ينظر الى الضـفة الغربية ويتفرس بعينين تقطر حزنا أشباح دورها وهى مبعثرة فى الظلمة السوداء • وما أن وطأت أقدامه الضفة الغربية حتى سقط على الأرض فاقدا رشـده •

(١٨)

استيقظ وليد من نومه وتراءت امام عينيه ظلال مصابيح واهنة ترتعش على جدر قاتمة فالتفت يمنة ويسرة على صفوف من الأسرة تصدر منها انفاس لاهثة فأزاح وليد الغطاء عنه وانتفض واقفا والحيرة تملأ وجهه ، فهرولت اليه ممرضة باسمه الثغر وجلست بجانبه، ثم قالت بوجه مشرق :

ــ الحمد لله على سلامتك يا دفعة .

فنظر وليد أمامه وحوله وتحت قدميه ثم قال مندهشا :

ــ مصرية انت ؟

تفرست الممرضة وجهه وقالت فى دهشة .

ــ انت فى بور سعيد يا دفعة .

ــ بور سعيد .. انا الآن فى بلادى : ثم أجهش بالبكاء وضعت الممرضة يدها على راسه .

فاندفع وليد من امامها وقال مذعورا .

ــ رصاص فى راسى ؟

تندت عيناها بالدموع وهمست بحنان فى اذنه :

ــ لست جريحا . انت بخير .

كسر السكون جئير حاد فاندفعت الممرضة نحوه وسمع تهريفا غريبا يصدر من جندى جريح ملفوف فى الشاش الابيض وقفت بجانبه واخذت تربت على رأسه ، فتقدم وليد الى الجندى ولاصق الممرضة وقال منفعلا :

ـ ماذا أصابه ؟ .

فتطلع الجندى الجريح الى وليد وقال بصوت واهن متقطع :

ـ الرصاص مزقنى . انى أحتضر .

جذبت الممرضة وليدا من امامه بلطف وقالت :

ـ اذهب مكانك حالته لا تحتمل الحديث .

فرجع وليد بين صفين من الجرحى وهجع فوق فراشه مطحون النفس وفى الصباح سمع همهمة وحركة غير عادية ثم فوجىء بخشبة يسحبها اثنان ووضعا عليها الجسم المغطى بالشاش ولفوه فى ملاءة بيضاء ، ولمعت عيون الجنود وهى تحلق فى الجسد الممدود تحت الغطاء واخذوا يتمتمون ويتنهدون فى أسى عميق .

وفى المساء حضر رقيب أول الى المستشفى وسجل كل البيانات الخاصة بوليد وأتم اجراءات خروجه من المستشفى وصحبه فى سيارة عسكرية الى مدرسة محتشدة بالجنود .

جلس وليد مع الجنود وهم يلفظون مر الحديث وسمع منهم أساطير العذاب فعادت اليه مسيرة الأيام السوداء وظلالها القاتمة وانفجر فى صدره طوفان الحوادث يمزق الاخضر واليابس فأطرق رأسه الى الأرض تائها فى ضباب الذكرى .

تقدم نحوه جندى وقال :

ــ ما يحزنك يا دفعة ؟

فرفع وليد راسه وقال وهو شارد العينين .. أشباح الهزيمة تطاردنى اينما كنت .

قال الجندى بعصبية :

ــ اسرائيل ملكت أقدارنا . قال وليد متأثرا : هزمتنا فقط .

ــ هزمتنا فى ثلاث حروب ، واى أمل تتوقعه بعد ذلك يادفعة ؟ توقد الشرر فى عينى وليد وقال غاضبا :

ــ للآن لم تقتل فينا الوجود .

دار الجندى حول وليد وقال محتدا :

ــ أفواه مدافعها تطل من القناة فى أحشاء مدننا .

ــ سيناء مقبرة لهم . قال الجندى فى سخرية : مقبرتنا نحن .

ــ المقبرة لم توار كل ضلوعنا .

حدجه الجندى بنظرات طويلة تدلت على شفتيه ابتسامة شاحبة وقال :

ــ اتمنى ذلك .

أشار وليد ناحية المدينة وقال :

ــ انظر .. المدينة ما زالت باقية ورجالها ما زالوا يصنعون الحياة فوق ارضها .

هز الجندى راسه فى سخرية ولاذ بالصمت .

برح وليد فناء المدرسة الى الداخل وكان الليل يرسى ظلاله على المدينة ولم يبق فى الشوارع سوى السيارات العسكرية تنهب الطريق فى سرعة ، وجنود راجله تضرب الارض باقدامها فى عجل . توسد وليد حذاءه واسترسل فى افكاره ودارت الايام فى مخيلته وافرزت الشهور والسنين ثم تراءت أمام عينيه اشباح هائمة تترنح فى خطاها وتقول فى ذعر مجنون (ذبحوكم فى سيناء ، عجنوا لحمكم بصلب السلاح توارت ضلوعكم فى أصقاع الصحراء) فنهض وليد مذعورا واطل برأسه من شرفة غرفة قاتمة الظلال فرأى القناة متشحة السواد ، وعلى ضفتها الشرقية اليهود يجترون احلامهم وينسجون بمغازلتهم حكايات طويلة فبكى وانتحب وشعر بنيران الحقد تنهش عظامه ونزلت كلمات الجندى على راسه كمطارق الموت (اليهود ملكوا أقدارنا، هزمونا فى ثلاث حروب ، أفواه مدافعهم مصوبه الى مدننا .

وذهب وليد الى مكانه وتوسد الارض ، وفجاة سمع صراخا حادا فانتفض مذعورا وهرع الى الخارج فرأى جنديا حافى القدمين ممزق الثياب وبقع دم قديم تعلو وجهه وعيناه كثقبين محترقين ثم راح الجندى يصرخ ويتلوى ويئن .

فتقدم اليه جنديان واجلساه واعطاه احدهما كوبا من الماء فأفرغه فى جوفه ثم قال منفعلا :

ــ ماء مصرى . وانخرط فى البكاء .

اخذ الجنود الجندى وضمدوا جرحه وكتبوا اسمه فى سجل العائدين .

★★★

انبثق الصباح مرا فى الحلوق نوره يحكى فداحة المأساة

والعلم الاسرائيلى يرفرف فوق الجسر الشرقى والجنود المصريون يرشقونه بنظرات مكلومة .

افترش وليد الارض وراح يرتشف من ساعات الليل حكايات الظلام وبينما هو مسترسل فى فكرة ضربت نوبة قيام فهرع مع الجنود الى فناء المدرسة وتقدم الى الجنود صول واخذ يعلن قائمة بأسماء المرحلين من المدرسة وتتابعت الأسماء ثم سمع وليد أسمه فهرول مسرعا الى الخارج وانضم الى الجنود المنتشرين أمام المدرسة ، ثم استقلوا السيارة واندفعت بهم تشق عباب الطريق وكانت المدينة غارقة فى الظلمة وأمواج البحر عن قرب تجلد الشاطىء وتفجر السكون المطبق على المدينة .

(١٩)

نزل الجنود من السيارة ووقفوا امام سور ملفح بالخضرة وتقدم رجل طويل يمسك بفانوس شاحب النور وفتح باب خشبى فتدافع الجنود الى الداخل وذعروا عندما رأوا جبانة تلفها الظلمة وما ان انتشروا حول القبور حتى اصبح كل جندى تحت جدار قبر .

قال وليد لرفيقه . تنام بهذه السهولة ؟ ولما لا .. انها افضل من ليالينا السابقة .

هذه الظلمة تحمل اشياءا اخرى .

ـ كيف ؟

ـ لأن وعى الانسان فيها متفتح للحقائق .

قال الجندى فى ضيق :

ـ انك تشغلنى بحديث ليس لى حيلة فيه .

وسكت مليا وأضاف ما :

ـ ماذا تريد منى .

ستيقظ معى .

رفع الجندى بيده فى الفضاء وقال وهو مغمض العينين :

ـ النوم فى رأسى .

ـ قال وليد :

ـ اذا استيقظت رحل النوم من عينيك .

ـ النوم لذيذ ودعنى أنام .

ثم فرد جسمه وراح يغط فى نوم عميق .

اسفر الصبح ونشر نوره وبدت الجبانة واضحة المعالم مقابر كبيرة واخرى صغيرة فى شكل المربعات والمستطيلات وشجيرات الورد الحمراء والبيضاء تورد ثناياها واشجار الياسمين تغطى مساحات كبيرة من القبور .

تأمل وليد هذه القبور فى دهشة وراحت عيناه تحلقان فى انحائها فاصطدمت برجل طويل نحيف يخرج من حجرة فى طرف الجبانة فتقدم نحوه مسرعا وقال الرجل فى ابتسامة عريضة .

ـ اهلا بالجنود . اهلا بعمنا الشيخ .

تفرس الشيخ فى وجوه الجنود ثم قال بعطف أبوى ـ نمتم فى العراء يا اولادى . قال وليد :

ـ لقد تعودنا على ذلك .

ـ يبدو ان هذا الموقع مناسب لكم . قال وليد فى دهشة :

ـ مناسب لنا ... جبانة الشهداء تليق باستقبال الجنود.

ـ هذه جبانة شهداء ؟

قال الشيخ والابتسامة تتألق على عينيه :

ـ نعم كل من فيها شهداء حرب ١٩٥٦ .

ثم سكت مليا وقال بصوت هامس :

ـ وايضا فيها ابني الوحيد واشار باصبعه الى قبر يضم عددا كبيرا من الشهداء وعاد يقول :

ـ هنا قبر ابني حفرته بيدى ودفنته بنفسى كان ابني ضمن شباب المقاومة أثناء حرب ٥٦ وقام بعمليات عسكرية كبيرة ، كانت جراته لا توصف وشجاعة نادرة المثال .

ثم صمت برهة واجال بصره الى القبور المكسوة بالخضرة وقال بهدوء ممزوج بنبرة حزن !

ـ لقد عشت مقاومة المدينة فى سنة ٥٦ ودفنت بيدى معظم هؤلاء الشهداء ومن هذا العام وأنا هنا حارس لقبورها ٠

ثم صحب وليد وطاف فى انحاء الجبانة وكان الشيخ يسرد عليه حكايات البطولة وقصص الأبطال ٠ أشار الى مقبرة لأربعين شهيدا من العسكريين ذوى الرتب الكبيرة والتفت الى الخلف وأشار بيده قائلا :

ـ وهذه مقبرة لثلاثين شابا من شباب المقاومة قاموا بعمليات فدائية ضد كبار القادة الانجليز والفرنسيين ٠

كان وجه الشيخ وهو يحكى كل هذا السير يضىء بنور غريب وكانت كلماته تفيض عذوبة وحلاوة .

★★★

اسرت اقاصيص الشيخ قلب وليد وانطفأت فى اعماقه ظلال الصور وكان يشعر بمتعة قوية هو ورفاقه الجنود عندما كانوا يحيطونه ويستمعون فى شغف الى حكاياته . وبدات الحياة من حوله فى هذه المواقع تتفتح وتتبرعم بالفرحة وكانوا ينتظرون عودة الشيخ فى لهفة ليستمعوا الى أحاديثه الطيبة ٠ وكانوا

يستقبلون فى كل يوم جنودا عائدين من سيناء . فقد كان هـذا الموقع تجمعا لجنود وحدة بطارية السواحل بالعريش وكان وليد يشعر بالسعادة كلما قدم الى وحدته رفاق من سيناء .. وظل قادة الموقع يستقبلون تجمعات الجنود العائدين فى حرارة وحب.

★★★

سمح لجنود الموقع تصريح خروج الى المدينة فخرج وليد مع رفاقه الجنـود الى بور سـعيد وكان الأهالى يسـتقبلونهم استقبالا طيبا كانت نظراتهم الغنية بالمشاعر تمسح من صـدور الجنود كل ظلال الألوان الشاحبة ورأوا فى طرقات المدينـة وفى شوارعها وحواريها الأطفال تسير فى طوابير متراصة ويهتفون .. ويغنون وينشـدون ويكتبون على جـدار الاسـوار والمسـاكن ومسطحات الطرق أهازيج القتـال ورجال المقـاومة الشـعبية يطرقون الشـوارع بثبات وعزم الـكل فى الاسـواق والمقـاهى والشوارع يتحدث عن الصمود والمقـاومة وذكريات بطولات ٥٦ وان الحرب مازالت قائمة ومستمرة انسابت حياة المدينة فى قلب وليد اغنية عذبة تفيض حروفها جمالا وسـحرا .. وكان أهلهـا ورجالها وأطفالها ينسـجون الفرحة ويملأون قلوب الجنـود العائدين حبا وأملا .

وانتظر الجنـود بفـارغ الصبر عودة القائد .. عودة بطل موقعهم يوسف وسرى الخبر وسط الجنود كالنـار فى الهشـيم وأصبح الكل ينتظر هذا اليوم وبعد ساعات .

ثم عاد البطل القائد فتدافعت نحوه الجنود تعانقه فى حرارة وتلتف من حوله فى حب كبير واستطاع القائد ان يجمع شـملهم وينظم صفوفهم .

وصرح القائد بأجازات على مراحل لتبدأ بعد ذلك مراحـل التدريبات الشاقة وبات الكل منتظرا اليوم الذى يزور فيـــه أهله وذويه .

واخذ وليد يترقب هذا اليوم بفارغ الصبر .

ليرى أهله وذويه وأمه وحبيبته وداد .

القــرية تلفظ نهــارها والغســق الفيروزى يســبح فوق بساطها الأخضر والفلاحون بفئوسهم ومناجلهم يدبرون الى دورهم فرحين مسرورين والصبية خلف بهائمهم على القنوات المعشبة يصفرون ويقرقرون والطبيعة فى القرية العذراء مازالت تلــد الخضرة وتنثر على ســهولها ينابيع العطــاء ـ رجالهــا مازالوا يعيشون أســطورة الحب الخالدة ونساؤها مازلن يصــنعن من ترابها الطيب ارزاق الشتاء والصــيف والكل فى هــذه القرية الخضراء مازال يأكل من وعاء الدهور حكايات الوفاء ..

دخل وليد القرية وهو لا يصدق باذنيه وبعينيه أن القرية مازالت تزخر بهذا الجمال وأن الحياة فيهــا مازالت تسرى فى أوصالها مثــل هذا العطاء ، وبهرته القرية وهى تتجمل بذهب الأصيل فأسرع الخطى وامتدت اقدامه تزرع الطريق ، وما أن وطأت أقدامه القرية حتى لمعت صورته فى عيون الفلاحين فهرعوا اليه فرحين مسرورين والقوا بأنفسهم على صدره فى عناق حار طويل وتندت العيون بالدموع واهتزت اللحى البيضاء المخضلة بعبرات الكهول وخرجت النســوة من دورهن يزغردن وتجمــع صبية القرية وصغارها من حوله ينشدون للعائد أغانى القــرية العذراء . غرق وليد فى مشاعر الناس وهى تحيطه من كل جانب ففاضت عيناه بالدموع ومست شغاف قلبه مشاعر حارة واخذ عرس القرية يزفه من مدخلهــا حتى داره وأمام منزله خرجت

امه وهى منتشية الفؤاد وفاضت عيناها بالدموع وراحت تعانقه وتجذبه اليها فى حنان كبير . وامتد عرس القرية فى الدور والحقول وعلى المصاطب وفى الأجران يزف بمشاعر الحب والوفاء عودة وليد سالما من حرب احترق فيها الاخضر واليابس .

★★★

جلست وداد بجانب وليد فى داره تمده بقطع من المانجو وتقص عليه حكايات القرية التى فى غيبته وتتأمل وجهه فى شغف كبير . نظر اليها وليد وقال وفي عينيه تساؤلات حائرة :

ـ كم ضحايا قريتنا يا وداد ..؟

قالت فى هدوء ممزوج بالأسى :

ـ استشهد كثيرون ، وغاب كثيرون وحضر قليلون .

تفرس فى وجهها المتورد بربيع الشباب وقال والأسى يملأ عينيه :

ـ وعدت مع القليلين ياوداد انسانا مقهورا مطحونا .

فتغيرت ملامحها وقالت وفى عينيها دهشة !

لا تقل هذا يا وليد .

ـ ماذا أقول يا وداد ؟

ـ قل عدت اليكم .

فأجاب فى حسرة .

ـ ما فائدة عودتى بهذه الصورة المؤلمة .

دنت برأسها نحوه وقالت هامسة :

ـ كنت مثلا لنجلد والثبات وتعود هكذا صريح الفؤاد ..

نهض وليد قائما ودار حول مقعده ووقف بجواره وراح فى شرود فقامت اليه وداد بسرعة وقالت فى جذع :

ـ جرحتك كلماتى يا وليد ؟

برقت عينا وليد وقال منفعلا :

ـ لا ياوداد ، انك تقولين الحق ، انك توقظين فى اعماقى مشاعرا ، أريد لها أن تصحو .

وسكت مليا واستطرد قائلا :

ـ اذا حدثتك ياوداد عن هذه الحرب وعن مآسيها ستجزعين من حياتك مدى عمرك ، ولكن اذا تحدثنا سويا أنا وأنت والقرية بأثرها ماذا نفعل لهذه الأمة وماذا نريد لها ؟ سيقف كل منا امام هذه الكلمات طويلا لأنها تمس قلب الحقائق وجوهر الاشياء . واحمر وجهه ولمعت عيناه ومضى يقول والكلمات تحترق على شفتيه .

ـ بلادنا مازالت تنفس حياتها وتفيض بنعمها ونريد لقلوب هذه الأمة ان تبقى وان تزرع الأخضر فوق ترابها .

واجاهد قلبى أن يبقى سليما معافا . بعد أن هدرت فيه أحزان الحرب ومآسيها .

مدت وداد عنقها نحوه واتسعت عيناها لكلماته وقالت فى هدوء ممزوج بتساؤلات كثيرة :

ـ هذا ما يريده قلبى ، وانك تقول ما احب ان اسمعه . فأجاب والدموع تفيض على وجنتيه !

ـ تحرقنى كلماتك أحيانا وأنا أعود بها الى أيام حمراء قضيناها فى بوادى سيناء وحزنا ، وفراقا ، وألما ، وأريد دائما

ان أتقلب تحت شمس بلادى كلما انفضت على ظـلال الصـور وفواجع الأحداث .

ـ قريتك يا وليد مازالت هى قريتك ترابها الاخضر نخيلها الشاهق فى عنان السماء أهلها ورجالها كلهم مازالوا يضعون فيها حبات قلوبهم فتألقت عينا وليد بالفرحة وقال :

ـ حقا ما تقوليه ، قريتى ما زالت ترفل فى خضرتها ويأتيها ربيعها وكنت اعتقد أنى سأعود فارى الدنيا قد تغيرت وأظلمت واكفهرت وكنت أنا فى الصحراء فى ليلها ونهارها وقيظها أعتقد أن قريتى ستحال هشيما وسيذوى كل من فيها .

وتنفس نفسا طويلا واستطرد قائلا .. رجالها مازالوا يضعون الحياة فى ترابها ، يضحكون ويغنون وؤكد أن هذا ليس استهتارا أو مجونا وانما هو الصبر والجلد وهذه هى شيمتنا يا وداد شيمة بلدنا حبنا الخالدة ..

دخلت أم وليد وعلى وجهها اشراقة حب كبير وجلست بجوارهما وراحت تتلمس وليد بأناملها وتكحل عينيها بوجهه المرتد اليها سحرا وحبا وقالت والفرحة تكسو وجهها كله :

ـ وعدت الينا يا وليد ، عدت الى امك التى بكتك منذ الرحيل وراح الثلاثة يتسامرون ويتحدثون فى حب كبير .

★★★

جلس وليد فى مقهى القرية المطل على نهرها المجدول بالخضرة وكانت النسمات الندية تلفح الوجوه برفق والفلاحون على بساطهم الأخضر ينثرون الأحاديث والحكايات فى شغف قال فيلسوف القرية وفلاحيها الحكيم :

ـ عدت الينا يا وليد وماذا ترى الامور بعد عودتك ؟

تدخل مؤذن القرية قائلا والابتسامة تفيض على وجهه :

ـ نكافح ونجاهد كما جاهد شيخنا الصوفى الكبير جهاده العظيم ضـد اعداء الله واعـداء المسلمين واكـد كلماته مدرس الفلسفة فى القرية قائلا :

ـ الحياة رحلة جهاد ، بين الخير والشر وهنا تكمن حلاوة النضال من اجل الوصول الى الهدف والغـاية ، وحيث أننـا اصحاب مبدأ سنصل بجهادنا وبصبرنا على المكاره الى الهدف مهما صعبت أمامنا الطرق وانفجر الأزهرى قائلا :

ـ جبلت بلادنا على التضحيات منذ الدهور الطويلة ونحن نكافح ونجاهد فى سبيل المبادرة السامية فارتفع صوت متجهم معترضا .

ـ ماذا تنتظرون بعد هذه الهزيمة يا رجال ؟

رد الجميع فى نفس واحد ..

ـ جهاد مستمر يارجل .

وانبرى له الشـيخ سويلم عـراف القرية وقال ولحيته البيضاء تهتز أمامه :

ـ لقد عشت ثورة ١٩ وحاربت الانجليز فى معارك عده ، وجاهدت مع الفدائيين واشتركت فى حرب ٤٨ ، وكنت رسول خير ومبشرا للحق فى حرب ٥٦ .

فعلت وجه وليد ابتسامة عريضة لقد هزته كلمات الشيخ سويلم وسكبت فى قلبه مشاعر حاره ، فالقى نظرة على الجموع وهم يتحدثون وحملق الى الآثار الفرعونية فى مدخل القـرية

وهى تحمل فى نقوشها حضارة الدهور الطويلة وعادت الى مخيلته بواكير صباه على ساحة النقوش القديمة كيف كانوا يلعبون فوق أحجارها ويسهرون الليالى الطويلة وكيف كانوا يستمعون الى حكايات جدتهم العجوز فى ليالى القمر الجميلة وهى تسرد لهم الحكايات الطويلة (هنا منذ ازمان سحيقه عند هذه الأحجار القديمة ، كانت حضارة عريقة ، ملكها وأميرها وفارسها ، وكاهنها ومهندسها وطبيبها وأديبها وفنانها كلهم فوق هذه الأرض الرحيبة كانوا يصنعون حضارات عظيمة) .

علت الفرحة وجه وليد وتألقت عيناه بالنور . فهزه الازهرى من كتفه قائلا :

ــ تتأمل الله فى خلقه ؟

فأجاب مدرس الفلسفة قائلا :

ــ يتساءل اين نحن من واقعنا .

وقال الفلاح الفيلسوف .

ــ يقول عدت اليك يا قريتى الحبيبة وعدت الى خضرتك الرحيبة ويتدخل الشيخ سويلم قائلا :

ــ يقول بلدنا لم تقدم الرجال منذ ازمان بعيدة .

وراحوا يضحكون وينثرون النكات ويتسامرون الى ان هبط الظلام وانساب من قلبه الحان ناى ساحر الترانيم يأخذ اللهب والقلب الى أزمان سحيقة وعظيمة .

دخل وليد الى أمه وهى تتهجد لله فى محراب صلاتها النورانى فأخذته لحظات فكر روحى ففتح النافذة وراح يرنو الى

السماء المتألقة بينابيع نور القمر الفضى وشــنفت اذناه بكروان يسبح لله أناشيد حبــه الـكونى ، وطافت فى مخيلته خاطرات متألقــات تنبع من الزمان العريق وتراءت له الاشـــياء مخضرة ومزدهرة ويشيع منها عطر مسكر ، فتألقت عيناه بالنور وقال مخاطبا نفسه (سنعود الى وحدتك يا وليد وانت متورد الخواطر قرير العين منتشى السرائر لقد نقشت القرية فى صدرك يا وليد حكايات تاريخها العظيم .

فدنت امه منه وقالت فى حنان وحب ؟

ــ سترحل باكرا ياولدى ؟ باذن الله

وسكتت مليا وعادت تقول : متى ستعود ؟

ــ هناك تدريبات شاقة والأجازة ستكون قليلة .

ربتت على كتفه وقالت :

ــ السلامة لك يا ولدى ولكل اخوتك الجنود .

فوضع وليد يده على كتفها وقال وهو يرسم ابتسامة على وجهه :

ــ الحياة بدات تعود الينا يا أماه ، لقد جمعونا من العراء وشكلوا منا من جديد كتائبا وفرسانا وصقورا ثبتوا الأرض تحت أقدامنا . فعلينا بعد ذلك أن نكون المثل والقدوة لأن الوطن فى حاجة الى يد كل منا .

ــ وقالت الأم وهى تذرف الدموع .

ــ كنا نسمع يا ولدى حكايات مخيفة ، قالوا لنا جيشكم قد سحق هناك فى سيناء ، ورجالكم دفنوا فى صحرائها وتعرت جثثكم لصقور الصحراء وذئابها .

ثم اخضل وجهها كله بالبكاء وعادت تقول بصوت مرتجف :

ـ قالوا لنا لم يعد لأمتكم رجال يصنعون لها حياتها .

اومأ وليد برأسه وعاد يقول منفعلا :

ـ القرية يا أماه هنا انت ترابها ، رجالها وكهولها ونسائها وأطفالها وبناتها . كلهم مازالوا يصنعونها ويصنعوا من ترابهـا اطايب الطعام .

وتنفس نفسا طويلا ومضى يقول بصوت مرتعش :

ـ لن تموت هذه الأمة مطلقا يا أماه . أمة الخمس آلاف عام ستظل باقية وسيظل شمسها وقمرها ونيلها وترابها فى أيدى ابنائها .

فقالت الأم متأثرة :

ـ ثكلت قريتنا فى بعض رجالها يا وليد .

فأجاب وليد فى التو :

ـ هذا أمر لابد منه يا أماه ، الحرب هكذا تأخـذ بعض رجالها ولكنها للآن لم تأخذ كل رجالنا .

مسحت أمه بأناملها على شعره ووجهه وقالت وهى مشرقة الوجه :

ـ بارك الله فيـك يا ولدى .. انى افرح لفـرحك وتغمرنى السعادة لسعادتك ، وبكاءك ايضا يبكينى .

قال وليد بصوت هادىء :

– أحمد الله على نعمه بأن أنعم على بقلب مثل قلبك ونقاء مثل نقائك .

فتهللت أسارير الأم وفاضت الفرحة على وجنتيها وقالت:

– لا يابنى لست وحيدة في ذلك · كل الأمهات يملكن مثل هذه القلوب .

وظلا يتســـامران الى أن داعب الكرى جفونهما فأخذا الى النوم .

اندفع جنـدى مسرعا الى رفاقه الجنود قائلا بوجه يشرق بالفرحة :

ـ عرفنـا حلاوة النصر يا رفاق · اقرأوا ما فى الجريدة · فالتف حوله عدد من الجنـــود وقال أحدهم والفرحة تفيض على عينيه :

ـ ماذا حدث ؟ أجاب الجندى مسرورا :

ـ حققت قواتنا فى رأس العش نصرا عظيما لقـد تمكنت قواتنا المترجلة من دحر قوات العدو المدرعة عندما حاول احتلال الموقع لمنع نشاطنا العسكرى داخل سيناء ·

وبلع رضابه واستطرد قائلا :

ـ لقد تصدت أجسامنا لدبابات العـــدو · وسحقت كل تفوق عسكرى للعدو ·

وقال جندى آخر :

ـ العدو لن يقضى على ارادة الصمود فينا ·

وصاح ثالث بأعلى صوته :

ـ الله أكبر ·

تدافع الجنود حول الجريدة وراحوا يقرأون فى سعادة بطولة القوات التى حققت نصرا عظيما على قوات العدو فى رأس العش ·

توسط وليد الجنود وقال متأثرا :

والآن تأكد لكم قولى يا جنود · كنت أقول لكم أن هـذا الأمر لن يدوم والهزيمة مهما كانت سيكون لها نهاية · لأن الحرب يا رفاق صولات وجولات يوم علينا ويوم لنا ·

فهتف الجنود وكبروا وملأت الفرحة قلوب الجميع ·

دخل النقيب يوسف الوحدة وهو يختال فرحا وجمع أفراد الموقع وقال والفرحة تعلو وجهه :

ـ سنبدأ تدريباتنـا الشـاقة وسوف نختار منكم أفردا للقوات الخاصة ·

فتعالت صيحات الجنود تهتف فى صوت واحد :

ـ نريد أن نكون ضمن هذا التشكيل ·

قال القائد بفخر :

ـ كلكم سيعمل من أجل مصر ·

بدأت التـدريبات الشـاقة وامتلأت الصـحراء بالقوات العسكرية وتنوع وتعدد حملة المؤهلات وتمكنوا من التعرف على أعقد الأسلحة العسكرية وبرزت كل مواهبهم فى هـذا المضمار وامتدت الدشم والخنادق والأسلحة بكافة أنواعها امتداد القناة · وسهرت عيون الجنود يقظة جلدة ينتظرون فى رغبة جامحة ساعة الانطلاق العظيم من تحت دشمهم وخنادقهم ولم تهمد الحياة فى مصر كلها ، فقد كانت القوات الخاصة وأفراد الصاعقة يستردون

المواقع من حراسها ويذبحون الجسور ويصنعون فوق مواقع العدو بطولات باهرة يضرب بها المثل فى التضحية والفداء ·

قال وليد مسرورا :

ـ فى شدوان دارك معارك مجيدة استمرت ساعات طويله وامتدت اليوم بليله ونهاره ، وفوق الجزيرة لم تلن ارادة القوات المصرية رغم محاولات العدو العديدة لاحتلال الجزيرة مستخدما فى ذلك طائراته وقوات مظلاته ومع كل ذلك بقيت القوات المصرية داخل الجزيرة صامدة واستشهد منا أبطال كثيرون وعجز العدو عن تحقيق غرضه · وأضاف جندى آخر قائلا :

ـ لم نكتف بذلك يا جنود بل امتد نشاطنا الى أعماق موافع العدو وانقضت صاعقتنا على مواقع العدو فى ضفتنا المسلوبة وفوق رمالنا وحققت انتصارات عظيمة ·

وأضاف جندى من الدفاع الجوى قائلا :

ـ وتصـدت مدافعنا وقواتنـا لشراسة طيران العـدو ولم تبال بهجمات طائراته والجندى منا لم يترك سلاحه الا وهو ملتصق بلحمه ودمه من حديده وناره ·

وقال جندى فى البحرية وهو متألق الوجه :

ـ وهنـا فى بحارنا وفوق مياهنا يا جنود أعطينا للعـدو درسا لن ينساه أفقدناه وعيه وذبحنا له ايلات معجزة بحاره ·

قال وليد وعيناه تسطعان ببريق لامع :

ـ هذه حكايات سردناها لكم أيها الجنـود وأنتم تتأهبـون للانتقال الى وحداتكم الميدانية لتكون لكم رمزا لعظمة هذه الأمة ·

فأجاب جندى ما زال فى شهوره الأولى من التجنيد :

ـ قصصتم لنا حكايات طويلة عاشها وطننا وحققتها قواتنا ونعاهد الله ونعاهدكم كما نعاهد أنفسنا أننا سنصنع النصر معكم لهذه الأمة ٠

قال وليد مزهوا :

ـ نعم نحن أجيـال متعاقبة كل جيـل يعطى للآخر مشعله لتمضى المسيرة فى ثبات وقوة ٠

(٢٢)

قالت وداد فى دهشة :

ـ لماذا يا وليد هذا السكون على الجبهة كنتم ترمون العـدو بالنار وتؤرقون مضجعه ٠

أجاب وليد فى هدوء :

ـ صمت أرى فيه حكمة ، رغم ما فيه من توتر ، ولكن تأكدى أن يوم الخلاص «وعده قريب» ٠

أضافت وداد قائلة :

ـ هل سيستمر الصمت طويلا يا وليد ٠

أجاب وليد منفعلا :

ـ لا يا وداد نحن نسكن قلب الرمال فى الليل والنهار فى القيظ والزمهرير والجندى منا ما زال ينتظر يومه الأكبر بفـارغ الصبر ، ومن استحالة أن يستمر هذا السكون ٠

وشرد وليد وتاهت عيناه فى فكر عميق طويل ٠

تفرست وداد فى وجه وليد وابتسمت له ابتسامة عريضـه وقالت :

ـ فيم تفكر يا وليد ؟

أجاب متأثرا :

ـ لقد هاجمتني الذكرى يا وداد تذكرت أيام الحرب وأحزانها وسكت مليا وعاد يقول :

ـ هـذه الحـرب رغم هزيمتنا الا انهـا أفرزت من ضلوعها بطولات فردية خارقة ، ولكن حجم الهزيمة أطفأ كل نورفيها ٠

سرت في سرائر وداد مشاعر جامحة وقالت والكلمات ترتعش بين شفتيها :

ـ هذه الحرب يا وليد لغز ، قصة غريبة تحتاج الى أجيال لكي تكشف كل أسرارها وحكاياتها ٠ وتنفست نفسـا طويلا وقالت بانفعال :

ـ كنا في هذه القرية لا نصدق ما حدث كنا نكذب كل شيء وحتى بعد الهزيمة والعدو يشق علينا جسور الموت ان ما حـدث كان حلما مزعجا ارتجفت منه كل قلوبنا ٠ كانوا يقولون لنا ان العـدو سحقكم قتلكم في سيناء ذبح جسوركم وأقام لكم محزنا كبيرا كنا لا نصدق اننا أصحابه مشاعرنا كانت تحترق ، تحترق٠

قال وليد مقاطعا :

ـ لقد خمدت النار في صدورنا ٠

قالت وداد منفعلة :

ـ انها لن تخمد في نفوسنا ٠

قال وليد مبتسما :

ـ انطفأ اليأس وبقيت نار الثأر في قلوبنا ٠

قالت وداد بارتياح :

ـ نعم يجب أن يبقى الثأر نارا فى قلوبنا · هز وليد رأسه وقال :

ـ الجنود يا وداد بعد أن ذاقوا حلاوة النصر فى مواقع متفرقة فى حرب الاستنزاف ملكتهم ارادة قوية وأصبحوا يمسون ويصبحون منتظرين لحظة الثأر العظيم ·

جلس وليد مع وداد تحت ناعورة ملفوفة بجدائل الخضرة والماء من حولها فى الجداول ينساب من كواديسها الفخارية ·

قالت وداد ضاحكة :

ـ أيام جميلة هل تذكر أول لقاء بيننا هنا يا وليد ·

قال وليد فى نشوة :

ـ أذكره يوم كنا طفلين : نلعب على البساط الأخضر كنا نصنع من جسور أرضنا لعبا حلوة ، أيامها وأنا طفل كنت شغوفا أن أطبع على فمك الفيروزى قبلات الطفولة · وضحكت وداد ومالت برأسها وتناثر شعرها وزقزق من فوقه عصفور أخضر الرياش وقالت فى تدله :

ـ أيام باقية ، كنت أخشى افتقادها ·

قال وليد منفعلا :

ـ لن تفقديها الا بموتى ·

انتفضت وداد وقالت والرعدة تسرى فى أوصالها :

ـ لا تقل هذا ، مرة ثانية يا وليد ·

قال وليد ضاحكا :

ـ أقوله على سبيل المزاح ٠

وظلا يتسامران الى أن قدم اليهما الشيخ سويلم وهو يختال في حيوية ونشاط وألقى عليهما السلام وقال وهو يرفع عصاه الى الفضاء :

ـ اذهب الى وحدتك يا وليد الحرب واقعة لا محال ٠

وتنفس نفسا طويلا وأضاف :

ـ أفراد أسرتى سقط منهم كثيرون أبطالا ، مع العرابيين وضد الانجليز في ثورة ١٩ وكنت واحدا من الثوار وكنت مجاهدا في حرب ٥٦ والآن وأنا أقارب الثمانين أتمنى أن أموت بطلا ٠
وظل الثلاثة يتسامرون الى أن اقبل الغروب وأطبق الأفق متوجا بالغسق ٠

ربض الجنود خلف أسلحتهم يترقبون ساعة الخلاص وكان
كل جندى يحمل فى جوارحه سنوات الانتظار العجاف وقصص
الليل والنهار والشهور والسنين وأطلال المجازر ومذابح النار
تتدافع أمامهم فى أردية حمراء ٠ الكل يضع أصبعه على الزناد
وينتظر فى فرحة ساعة الثأر العظيم ٠ ثم دقت ساعة الصفر ومع
ادبار لحظاتها هدرت المدافع من أقصى القناة الى أدناها بحمم
اللهب ٠ وارتعشت شواطىء الرمال الطويلة بالهدير الذى لاينقطع
وشقت أجواز الفضاء أسراب الطائرات تمزق السكون المطبق
وتناثرت القذائف من كل جانب سعير لا يخمد ضرامه ثم انقضت
صقور الصحراء من دشمهم ومواقعهم فوق الماء الأزرق تجز سكونه
بنار الغضب وعليه اندفعت قوارب المطاط الى الشاطىء الآخر
وأخذ يتتابع الطوفان يشق بصلب السلاح جبال الرمال وهوت
بحيل البارعين جسوره ، وتعالت تكبيرات الجنود وهى تمزق
أسلاك الحديد وتفجر قوالب الديناميت وتقتحم الحصار النارى
حول خط الأسطورة وصارت المعركة لحنا ناريا يدق بطبول القتال
أناشيد العبور ٠ وتتابعت الجسور فوق الضفتين وتعانق الشاطئان
تحت جسور اللهب ٠ ثم امتلأت الضفة الرقيقة بآلاف الجنود
بعدتهم وعنادهم واندفع أبناء التاريخ العريق يصدون بصدورهم
وأجسامهم رصاص الفزع الاسرائيلى واندفعوا الى أعماق المواقع
المصقولة بالحديد والنار ينازلون العدو فى أعتى مواقعه ٠ وهرع
اليهود المسلحون بدروع الصلب من خطهم الأسطورى فزعين
خائفين تحت أقدام أبطال العبور العظيم ٠ وظلت موجات العبور
تتقدم وتنسف من أمامها كل الجسور الحصينة ٠

(٢٤)

التف الفلاحون حول المذياع يســمعون البيانات العسكرية فى فرح كبير ٠

قال مدرس الفلسفة والابتسامة تعلو وجهه :

ـ العدو فقد كل امكانياته ، الحرب أصبحت لنا ٠

أجاب الشيخ سويلم وقلبه يفيض بالفرحة :

ـ أمتنا تعودت على ذلك ، بطولاتنا لا تنتهى ٠

قال مدرس الفلسفة :

ـ ألم تقرأ قصة الجندى المصرى الذى ارتدى حزاما ناسفا حول وسطه ثم ألقى بنفسه تحت الدبابة وتفجر معها لكى يعوق امتدادات العدو فى الممرات ٠

قال الفلاح مبهورا :

ـ أقسم بربى أن ابنى قادر على فعل هذه البطولات ، انه كالمارد يأكل الحديد بأسنانه ٠

ضحك الشيخ سويلم وألقى نظرة مضيئة على وجه الفلاح وقال مسرورا :

ـ أعرف شجاعة ابنك والقرية كلها تعرف ذلك ٠

عاد مدرس الفلسفة يقول :

ـ الجميل فى هذه الحرب أن كل أسرة بها مقاتل على الجبهة ·
وتدخل الشيخ سويلم فى الحديث قائلا :

ـ ولهذا كانت حرب الوطن كله ·

استطرد مدرس الفلسفة قائلا وهو يلوح بيديه الى الجموع :
ـ سنوات العذاب التى عشناها كانت ضرورية لأنها أرضعتنا الثأر قطرة بقطرة ، أنا لا أنسى مشاعر الجنود وعواطفهم نحو هذه الحرب الكل كان يرويها فى غده قبل نهاره ·

وأضاف الشيخ سويلم منفعلا :

ـ جند الفرز أكثر من ست سنوات ، فكانت لهم رحلة الحق الكبير ·

هز الفلاح رأسه وقال ونظرة الحسرة فى عينيه :

ـ كنت أتمنى أن أعيش مع هؤلاء الجنود فى مواقعهم ·

وضرب الشيخ سويلم الأرض بقبضة يده وقال ثائرا :

ـ وكنت أتمنى أيضا الاشتراك مع هؤلاء المقاتلين ، دم الثورة ما زال يتدفق فى جسدى كله ، أنا لا أنسى ثورة ١٩ ، وحرب ٤٨ ، ٥٦ هذه الحوادث عشتها كلها وشاركت أحداثها ولهذا يحزننى عدم وجودى مقاتلا فى هذه الحرب · فابتسم مدرس الفلسفة وربت على كتف الشيخ سويلم وحملق فى وجهه الذى يحمل أجيال السنين ثم قال فى هدوء :

ـ لقد أديت دورك يا عمى الشيخ على خير ما يرام ولكن دع هذا الحزن لى وحدى كنت أتمنى من كل قلبى الاشتراك فى

هذه الحرب ولكن انفرادى وحيدا لوالدى حال دون ذلك . قطع حديثهم صوت المذياع وهو يعلن البيان رقم ....

تمكنت قواتنا من اقتحام نقطة جديدة حصينة للعدو وقتلت عددا كبيرا من أفرادها واستسلم من بقى حيا فى أيدى قواتنا وبذلك أصبحت هذه الحصون المنيعة متهاوية تماما فى أيدى قواتنا وتتابعت الأغانى فنهض الفلاح قائما وأخذ يرقص ويغنى .

فقال مدرس الفلسفة مازحا :

ـ لك الحق فى هذا الرقص لانه يصدر عن فرحة حقيقية .
كست وجه الشيخ سويلم ابتسامة مشرقة واتسعت عيناه بنور لامع منتشيا بالسرور :

ـ سنظل نرقص ونرقص لم يعد فى أيدى الاسرائيليين سوى نقط معدودة وبعد ذلك سيتهاوى الخط بأكمله فى أيدينا .

وأضاف مدرس الفلسفة قائلا :

ـ وتحطم الخط الأسطورة فى أيدينا فى مدة وجيزة .

فتدخل مؤذن القرية قائلا :

ـ انها ارادة الله القادر على كل شىء .

فضحك مدرس الفلسفة ضحكة خافتة وعاد يقول .

ـ تأكد أن الله معنا لأننا نستحق ذلك .

قال الشيخ سويلم :

– بحنكة القواد وببسالة الجنود بارك الله خطواتنا والله مع كل مقدام شجاع ·

فتدخل مؤذن القرية قائلا :

– هذا ما كنت أريد قوله ·

وعاد مدرس الفلسفة يقول :

– العدو بدون شك يملك كل الامكانيات المتاحة وهو يفوقنا بذلك بكثير ، وكان يطبق علينا دائما نظرية التفوق العسكرى ولكنه أغفل ناحية هامة جدا وهى العنصر البشرى ودرجة الايمان فينا · ونسى هذه الحقيقة الكبرى ولهذا فشلت كل ترتيباته · وخطته وفوجىء بنا فوق رأسه ·

وأجاب الشيخ سويلم مؤكدا :

– نحن شعب يملك هذه الطاقة ومنذ أن خلقنا الله ونحن أصحاب عقيدة وحملة مبادىء وبهذا الزاد الروحى الذى لا يباريه زاد حققنا على مدى الدهور بطولات مجيدة ·

رفع مؤذن القرية يده فى الفضاء مؤيدا وقال منفعلا :

– اذن الدين عنصر أساسى يا رجال ·

رد مدرس الفلسفة فى هدوء : الدين جهاد مع الحق دائما ·

أشعل مشاعر الجنون بيان عسكرى يقول ··· (اخترقت أعداد كبيرة من طائرات العدو مجالنا الجوى على ضفتى قناة السويس وفى أماكن متفرقة من الجمهورية ، فتصدت لها طائراتنا المقاتلة ووسائل دفاعنا الجوى وأسقطت كل طائراته ولم ترجع للعدو أى طائرة سالمة) ·

هب الجميع واقفين يتعانقون ويغنون ويرقصون وانتفض الشيخ سويلم على عصاه واقفا وقال والفرحة تغش شغاف قلبه :

ـ دعونى أبلغ أهل قريتى هذه الأنباء السارة ٠ وكانت الأمهات والزوجات والبنات أمام دورهن يلتقطون الكلام والأخبار من أفواه رجالها وكان الشيخ سويلم عنـدهم هو عراف القريه يحكى لهم من خزائن التاريخ ووقائع الأحداث أحاديثا حلوة طيبة وما أن دخل القرية دورها حتى التفت النسوة من حوله وقالت امرأة ما زالت فى رونق صباها :

ـ ما الأخبار يا عمى الشيخ وترى متى ستنتهى الحرب ؟

أجاب الشيخ سويلم ضاحكا :

ـ تنتظرين عودة عريسك يا شابة ؟

وأطرقت رأسـها الى الأرض واحمرت وجنتيها وقالت فى تدله :

ـ لم يمضى على زواجنا الا أيام قليلة ثم أخذوه الى الميدان٠
ضحكت امرأة عجوز وقالت :

ـ ذهب ابنى معه يا شابة ٠ ثم نظر اليها الشيخ سويلم وقال :

ـ تجملى سيعود قريبا ٠

وقالت النسوة كلهن فى صوت واحد :

ـ الحرب لنا أم علينا يا عمنا الشيخ ٠

وضع الشيخ سويلم يده فى جيبه ووقف منتصب القـامة وقال ولحيته البيضاء تهتز على صدره :

ـ انها لنا وستظل لنا ٠

وسكت قليلا وعاد يقول ضاحكا :

ـ وسيعود الأزواج والأولاد ومن لم يتزوج سيتزوج ٠

ومن لم ينجب سينجب وستخضر الأرض حولنـا وستقيم قريتنا أفراحا وموالدا ٠ لكل العائدين المنتصرين باذن الله ٠

تعالت ضحكات النسوة وساورهن فرح وسرور وقالت وداد ضاحكة ودم الشباب متورد على وجنتيها :

ـ ومن لم يتزوج سيتزوج يا عمنا الشيخ ٠

قال الشيخ سويلم مبتسما فى وجهها :

ـ لك أن تفخرى بشاب مثـل وليد ، رجل كامل الرجولة وشاب تفخر النسـوة بأن يلدن مثله ٠ بارك الله لك فى هـذا الشباب ، وبارك لك فى هذا الزواج ٠

ثم تركهم الشيخ سويلم وانصرف الى داره وهو فى نشوة عارمة ٠

(٢٥)

لفظت الأرض من قاعها وجوها لاهثة فزعة وأجسادا متهاوية محطمة وانفجر الحديد معجونا باللحم والدم وانسابت قنوات البارود تدمر فى بطن الأرض حصونا وقلاعا ، وتهاوى الجسر الشرقى كله تحت أقدام الجنود الزاحفة ولم يبق من قلاعه الا قلعة واحدة ظل العدو بمدرعاته وحديده وناره يدافع دفاع المذعور المذبوح من الارادة ٠

وانطلق وليد بين هذا السيل المنهمر من البارود والنار يضرب بمدفعه خنادقا ودشما ويصب النار على دروع الموت فيحيلها خرابا وهشيما ، كان يشعر وهو يدق بالحديد والنار حصون الأعداء بانه يعيش قصته ويغنى أنشودته ٠ وكان الاسرائيليون المذبوحون والمذعورون تحت قدميه حصادا لثأر دفين كان يتلظى فى قلبه سعيرا كلما واتته ذكريات ٦٧ ٠ تذكر وهو يشق قلب النار حكايات رفاقه وجنوده فى حرب يونيو ٠ الرقيب فرحات وهو يغنى لمصر أنشودته حتى آخر نفس من أنفاسه وحسين المكلوم والمذبوح حزنا بحزن مصر ، وزهانه ابن البحر ورفيق مسيرته وشهيد أمواجه ، تذكر كل هؤلاء وهو يحكى بالنار حكاياته وكانت الشواطىء من أمامه مخضلة بالدماء ومملوءة بأشلاء المعارك ٠

وكان رفاق وليد من حوله مبهورين لبطولاته مباركين شجاعته وجرأته التى لا تباريها شجاعة ٠

وقف قائد التشكيل يطلب من جنوده تشكيل قوة انتحارية لتصد دبابات العدو المغيرة بعد أن استسلم الموقع فى أيديهم · فهب وليد اليه مسرعا واختير قائد لمجموعته وانطلقوا يحملون السـلاح لضرب الدبابات المغـيرة وقذفوها باللهب ونثروا فوق أبراجها النار وتمكنوا من تدمير دبابتين للعدو وارتفعت ألسـنة اللهب من حوليهما وتقدمت الدبابات الأخرى فى تشكيل جديد لمحاولة حصر القوة المصرية فراوغها المقاتلون فى اتجاهات مضادة وسقط شهيدان من المجمـوعة ومع سقوطهم دمرت دبابة ثالثه للعدو وانقضوا على الدبابات فى شجاعة وبراعة وشتتوا تشكيلهم فعجزت الدبابات عن حصارهم ، وفى لمح البصر انقض وليـد بمدفعه على دبابة وراح يضرب عجلاتها حتى دمرها تمـاما وقتل من فيها ، فأطلنا رؤوس اسرائيلية من الدبابة الباقية ورمت بعض أفراد المجموعة بنيرانها فسقطوا شهداء فاندفع وليد بكل قوته وقفز على الدبابة وألقى فى برجها بقنبلة يدوية ثم قفز الى الرمال فى لمح البصر وتدمرت الدبابة · وانتثرت أشـلاء الدبابة على الساحة كلها وتصاعد الدخان الأسود ··· وفاحت رائحة الدخان والجثث ووقف وليـد ورفيقه يتطلعان فى فرح كبير الى حصـاد المعركة ودار وليد بعينين مخضلتين بالدموع وقال :

ـ حطمنا كل الدبابات ولم يعد من المقاتلين سوانا ·

أجاب رفيقه وفرحة النصر تملأ عينيه :

ـ هذه هى الحرب يا وليد · قال وليد وعيناه تسطعان بنور حـاد :

ـ فعلنا ما يرضى الله · قال رفيقه :

ـ كنت بطلا ملحميا يا وليد ·

ـ كلنا أبطال ، هذا الوطن العظيم سيظل ذاخرا بالبطولة على مدى الأجيال ٠

ـ حقا ٠ ما صنعناه يعجز البشر عن تحقيقه ٠

فألقى وليد بنظره على الشاطىء الممتد بطول القناه ٠ وقال وعيناه متألقتان :

ـ وسقط خط الأسطورة ٠٠ سقط معجزة العصر الحديث٠

ـ والآن يحق لنا أن نفخر لأننا حققنا لأمتنا شيئا عظيما٠
قال وليد منفعلا :

ـ أنها تستحق أكثر من ذلك لأنها أرضعتنا من دينها ماء الخلود وألهمنا تاريخها وسيرها وشمسها وزرعها حقائق هذا الوطن العظيم ٠ فقطع حديثهما نداء القائد يدعوهما للحضور فقفزا اليه ٠

قال القائد :

ـ افرحوا ٠ سقط الموقع كله وزالت مع سقوطه أسطورته٠

قال وليد فى حماس :

ـ حضرت حربين وأريد أن يكون لى فى الثالثه ومن هذا الموقع شرف رفع العلم على أرضه ٠

قال القائد فى التو :

ـ هذا أقل ما أقدمه لك يا وليد عرفانا ببطولتك وشجاعتك ٠

وقف وليد فوق أعلى تل رملى يرنو الى أشلاء المعارك

وحصادها فى سعادة غامرة ولا يصدق أنهم فى أيام قليلة قد أتموا هذه المعجزة ، وهزت سريرته مشاعر حارة وانتشى قلبه بالفرحة وتألقت عيناه بالنور ، ثم راح يستعد لرفع علمه فوق أعلى بقعة فيه وتسلق جـدر التلال ووقف فوق رأس أعلى كثب رملى وراح ينظر الى القنـاة وهى متعانقة الضفتين وهبت على وجهه نسمات ندية معبقة باريـح طيب فهتف من أعمـاقه بحيـاة مصر ثم رفع ساريته مكبرا بينما كان يستعد لغرس ساريته فى الرمال انقضت طائرة على الموقع وقصفته وأصيب وليد بجرح غائر فى صـــدره فنزف الدم منه بغزارة وسالت خيوطه على ذرات الرمال فراح يزحف بصعوبة وهو يرفع العلم بيد ويسد جرحه باليد الأخرى وكلما جـذب ساريته فى قلب الرمال كلما اتسع جرحه ونزف بشدة حتى تلوثت ساريته بلون جرحه واخضلت الأرض من تحته بالدماء · وأخيرا تمكن من غرس ساريته فى الرمال فتنفس نفسا طويلا وراح ينظـر الى رايته وهى تخفق ومعها ظـل قلبه يخفق بالفرحة وتفيض على وجهـــه ابتسامات مشرقة ثم لمعت عينـاه واتسعت بالنـور وهو يرى الدبابات والمدرعات المصرية وأقدام الجنود الحديدية تجوب الموقع ··· ثم امتدت الدبابات والمدافع وخوذات الجنود فوق بحر الصحراء الرملى ·

ودارت فى رأسه أطياف متوردة واخضرت الدنيا من حوله وازرقت الســماء من فوقه بالصفاء وتألقت كل الأشياء أمامه ثم اضطجع تحت سارية علمه والراية تخفق فوق رأسه وظل يبتسم ويبتسم الى الى أن فارق الحياة ·

جمهورية مصر العربية

مطبـوعات
المجلس الأعلى للثقافة
رقم
- ٢٦٨ -

القـاهرة
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٣٠١٣

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٧٦ - ١